
ابراهيم الابياري
عذراء
البصرة



بقلم

ابراهيم الابيارى

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٢

المطبعة النموذجية .
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

قليل مما تخُط يدُ الكاتب، تسبقه سابقات، تتّضح وتمعن في الوضوح، حتى تكون من هـذا المكتوب سَبَبَه الموحي، وعلته المُملية.

وماخلا للكاتب مكتوب عن سبب أو علة، ولكن الأسباب عن الأسباب تمتاز، والعلل من العلل تفترق.

فمنها مايمضي غيرَ مُدرك، كما ظهر غير مدرك، يُذكر ماكان عنه ولا يكاد يُذكر.

ومنها مايظهر مجلجلا، ويبقى مدوّيا يُذكر هو ولا يكاد يُذكر ماكان عنه.

وتبقى هذه العلل وتلك الأسباب موصولة الذكر بنتاجها كأنها

قطعة منه. لاتنفكّ تذكر ما ذُكر ، بل قد تُقال ويُسكت عنه.

وبمثل تلك العلة المذكورة ، وذلك السبب المتصل ، جرى قلمي بهذه القصة . لا أذكر أني تهيأت لها قبل أن كان هذا السبب وتلك العلّة .

وأراني أسُوق سَببا ، وأشفع بعلّة . أبدأ بهما وأعيد ، كأنهما شيئان لا شيء واحد .

وهكذا عددتهما ، أبغي بالسبب شيئا ، وأبغي بالعلة شيئا آخر : أبغي بالسبب ذاك الذي يكون للناس في ظاهر أمورهم ، تدعو مطالبُ الحياة فيتحركون ويجيبون ؛ وأبغي بالعلة ، ذاك الذي يصحب ظاهر الأمر من إحساس باطن ، يدفع للشيء أو يثبط عنه .

ولقد سبق هذه القصة سَبَبُها ، كما سبقتها علتها :

سبقها سببها ، حين طلب إليّ صديق يتصل « بالسينما » أن ألخصها له فكرة — وقد كنت حدثته حديثها ، وحديث غيرها ، في إجمال عابر .

وسبقتْها علتها إذ كان هذا الصديق من الموصولين بقلبي ، وكان ذا يسر فأعسر ، وكان عونه على الذين يعرفونه واجبا ،

وعلىّ أوجب .

فكنت محفوزا بهذا السبب ، مدفوعا بتلك العلة ، وكاد السبب الحافز تستره تلك العلة الدافعة ، وإذا أنا أعمل للثانية بقلبى . متحركا للأول بيدى ، وهكذا جعلت السبب الذى تطالبه حياتى ، فى خدمة العلة التى يطمئن بها قلبى .

ولقد كتبت هذه القصة أولَ ما كتبتها فكرة فى أسطر ، كما حدثتك . ثم كتبتها فكرة فى صفحات ، ثم كتبتها فكرة يصورها الحديث الواصف ، الذى كان يرجوه هذا الصديق ، ليجعل هو من هذا الحديث حركة وعملا .

ويسعى الصديق سعيه إلى ما أراد ، فيُبعد ويُقارب ، تُمكنه الفرصة منها ثم تفوته ، وإذا هو آخر الأمر حزين لجهدى المضيَّع بعد جهده ، وإذا أنا آخر الأمر سعيد ، لأنى كنت مدفوعا بتلك العلة ، ناسيا حفز هذا السبب ؛ مطمئنا لأنى كنت فى عون صديق لى يوما ما .

وتمتلىء نفسى بحديث القصة ، فقد عشت بها مشغولا أشهرا ، أجد لها صدى فى الفكر ، وصدى فى الخيال ، وصدى فى القلب ،

راجد معها رغبة فى أن أصوغها حديثا متصلا للقارىء ، لا حديثا مجزأً للرائى السامع ، ففعلت .

ولقد شئت أن أجعل هذا الحديث القصير ، مقدمتى لهذه القصة القصيرة ، إذ أجد أن هذه جزء من تلك ، ومن الإنصاف أن تساق الأمور غير مبتورة ، وأن تقدم النتائج موصولة بأسبابها وعللها .

وما أُحب أن أنصف نفسى ، ولكنى أحب أن أنصف هذا الصديق ، الذى كان إليه وحى هذه القصة ، وكان هو المحرك إليها ؟

ديسمبر سنة ١٩٥٨ إبراهيم الأبيارى

١

على شاطئ دِجلة . وفى زاوية من الخليج الذى يدخل إلى البصرة ، تقع مدينة الأبلّة ، التى كانت إحـــدى جِنان الدنيا الثلاث : هى ، ودمشق ، و بَلْخ .

اجتمعت فيهـــا مستهلَّ القرن الثانى للهجرة أسبابُ اللهو والترفيه . فكانت مقصد اللاهين والماجنين من أعيان البصرة ، يقصدون إليها مع الليل ليقضوا سهرات صاخبة ، حيث مجالس الشرب والغناء

على حين كانت البصرة دنيا أهل الورع والتقوى ، عامرة بالمساجد للناس كافة ، وبالصوامع والبِيَع للعُبّاد والزاهدين ! ...



٢

وفى ليلة عاصفة ممطرة ، قد احتجب بَدْرُها وراء السحب الكثيفة ، غير أنه فى الحين بعد الحين ، عندما تخف الأمطار ، وتتكشّف السحب قليلا يرسل ضوءا خافتا يخترق هذا الظلام الدامس ، يكسو الأشجار القائمة على الشاطئ جلبابا أبيض باهتا ، لاتلبث الرّياح العاصفة أن تمزقه ، فيترك على الأرض خيوطا من نور ضعيف لاتكاد تنعكس على صفحة الغُدران التى خلّفتها الأمطار حتى تبدو قِطعاً من البلّور المحطم المُتكسِّر ! . . .

وللريح الهوجاء دوىّ شديد قد غلب على كل صوت ، واختفت فى طياته كل حركة . ثم إن له لعُنْفًا يكاد يُطيح بتلك الأشجار العاتية ، ويطوّح بكل شئ أمامه إلى دجلة ! . . .

وتتراءى تلك القوارب المربوطة إلى الشاطئ وكأنها الريش ينتثر ويجتمع ، ويعلو ويهبط ، وهى فى يد الريح كالكرات المشدودة فى يد اللاعب ، يجذبها إليه ما انقادت معه خيوطها ، حتى إذا ما استعصت عليه أطلق بها يده فارتدت إلى مَشدّها

سريعة مضطربة ، يَلطم بعضها بعضا فى عنف وقسوة ، تتجاوب جوانبها بأصوات تشبه الصيحات المـُعْـوِلة والأنّات المفزعة.

وتصيب بلطماتها وجه الماء فيثور بها عالياً ؛ وكأنه يَهِـم أن يبتلعهـا فى جوفه ، فيستعصى عليه ما يستعصى منها ، ويذهب هو بمـا يقوى عليه ! . . .

٣

ويَمض البرقُ ومضةً منيرة، تكشف عن شبحٍ التحف بعباءة ثقيلة طويلة، غطته من الرأس إلى القدم، قد استمسك بجذع شجرة عاتية، أتخذ من أغصانها المتشعّبة المتشابكة ظُلّة له تقيه شيئا من المطر، وجُنة من الريح العاصفة أن تقذف به إلى الماء! . . .

ثم يخف المطر قليلا قليلا. وتنقشع السحب شيئا ما، ويبدو قُرص القمر كاسفًا كالمحزون غِبَّ بكاء: تعلوه قَتَرة كالمغلوب شفَّه الحياء، ويَستقيم هذا الشبح فى موقفه ينفُض الماء عن أردانه كما يفعل العُصفور بَلَّله القطر، ويُزيح الغطاء عن رأسه ويَمُد عنقه يتطلع إلى السماء مرة، وإلى دجلة أخرى، ثم يخرج من مكمنه يخطو على الشاطىء فى خُطى مُتَّئدة حذرة، ويرى الماء على الأرض يكاد ينال ذُيول ثيابه فيرفعها بكلتا يديه ألاّ تتَلوّث، حتى يبلغ مكانًا قد تحوَّفه النهر فتقوَّس وآستجاف، وامتدت إليه يد الإنسان بعد يد الطبيعة فرَضمت أرضه بالحجارة.

وما كاد يُدركه هذا السائر المتعثِّر حتى أطلق ذُيول ثوبه حيث لا وحل ولا ماء، ووقف يُصلح من نفسه: فهذه قلنسوته

الصغيرة قد اضطربت على رأسه وهو الساعة يملك أن يعود بها إلى مكانها ، وهذا حزامه قد استرخى وانحدر عن موضعه فما باله لا يشد عُقدته .

وهكذا لم يفُته شيء من هندامــــه أفسده عليه المطر وآذاه فيه السير فى الوحل إلا ردّه إلى ما كان عليه. حتى إذا ما رضى عن نفسه وقف ينظر إلى تلك السفن الصغيرة المَشدودة فى هذا الجيب من الشاطىء ، وقد هدأت عنها الريح قليلا واستقرت من تحتها المياه ،فأخذت تتمايل فى رفق كالعذارى اجتمعن على مُداعبة، ثم يعود بنظره إلى الشاطىء يمنة ويسرة كالباحث عن شيء ، يفعلها مرة ومرة فعلَ الشاك يخاف أن يكذبه بصرُه ، ثم يحوِّل وجهه إلى النهر لا يريد به تلك السفن ولكنه فى هذه المرة يريد شيئا آخر ، وما يكاد يعلق به بصره حتى تلْتَفُّ البدرَ سحابةٌ دكناء فيستحيل الجو ظلاما كما بدأ ، ولا يعود هو يرى أثراً لما بدأ يراه .

فيُرهف أذنيه يسمع ، وما يكاد يطمئن إلى ما بدأ يسمعه حتى تثور الريح ثانية ، فإذا دوّيها هو كل ما فى هذا الفضاء .

ويشق القمر على تلك السحابة رداءها وهو يصارعها ، وما يوشك أن يُطل بوجهه حتى تسرع السحابة تطويه بفضل ردائها ، والقمر معها يبدو ويغيب ، والوجود يظلم وينير ، وصاحبنا ينتهز

تلك اللمحات المضيئة ، فيمد بصره إلى صفحة دجلة ، يتميز ضالته قلقاً يكاد ينزل إلى المـــاء .

ثم يثبت مطمئنا فى مكانه متهلل الوجه يلوح بيديه وهو يصيح بملء فيه :

إلىّ يا إسماعيل ! . . .

ويحس أن صـــوته ذهب مع الريح . وأنه لم يبلغ أذن من يناديه . فلا ييأس ، فيجمع كفيه إلى فيه يجعل منهما شبه بُوق وهو يصرخ :

إلى يا إسماعيل ! . . .

٤

ويغلب البدرُ السحب على أمرها ، ويبدو وجهه متألقا ينشوة الظفر ، وتهرُب دونه السحب فِرقا فِرقا قاتمة عابسة ، ويتراءى قارب إسماعيل يتأرجح على صفحة الماء وهـــو يغالب بمجدافيه الأمواج المتلاطمة ، وقد بدا إسماعيل منهوك القوى ، خائر العزم ، يكاد يُسلم أمره إلى الله وليس بينه وبين الشاطىء إلا خطوات!...

ويناديه الفتى :

إليّ ياإسماعيل ! ملوّحا بكلتا يديه . ويبلغ صوت الفتى آذان الشيخ بعد لأى ، فيرفع إليه رأسه فى دهشة ، ويرفع إحدى يديه عن المجداف يمسح بها عينيه ؛ ليرى من يناديه ، وهو يتمتم :

خيراً إن شاء الله !

فقد ترك إسماعيل امرأته قريبة من الوضع ، والقى فى رُوعه أنْ لابد أن يكون هذا المترقب له على الشاطىء يحمل إليه شيئا عنها ، وأنْ لابد أن يكون هذا الشىء شرًّا : فهو لهذا قد أوجس وارتاب وهو لهذا قد تمتم بما تمتم به .

ويعود « إسماعيل » بيمينه إلى المجداف وهو مضطرب ، فلا

تقع يده عليه . فيظنه قد فقده ، وتنفرج يده اليسرى عن المجداف الآخر لتعين اليمنى فى البحث عما فقدت ، فإذا المجدافان قـــد أفلتا ، وإذا السفينة تكاد تنقلب به ، وإذا هو فى حيرة من أمره . والفتى ملحّ فى النداء ، والشيخ مشغول عنه مبلبل الفكر ، عملاً عليه قلبهُ همّان : همٌّ قد أثاره فى نفسه نداء الفتى به ، وهمٌّ وقع فيه حين أفلت منه المجدافان ! . . .

ويمضى الفتى فى ندائه ، وقد دفعت الريح السفينة إلى الشاطىء قليلا ، ويتميّز الشيخ النداء فيطمئن قليلا ، ثم يتمتم وهو يقول : ها أنت ياربيع ! . . . جزاك الله خيراً ! القد ظننتك رسول أهلى إلىّ .

* * *

لم يكن الفتى من هؤلاء الذين تربطهم بالشيخ صلة القرابة أو الجوار فيسعى إليه بخبر أهله . لهذ أطمأن الشيخ قليلا ، وثاب إليه رشده فملك أمره ، وإذا المجدافان اللذان أفلتا من يديه منذ قليل فى قبضة يديه . وإذا هو قوىّ جلد على مُغالبة الأمواج ، وإذا السفينة تخطر متهادية إلى الشاطىء حيث يقف الفتى ! . . .

٥

وماكاد الشيخ يقترب بسفينته من الشاطىء حتى مدّ إليها الفتى رجله مسرعا وهو يقول :

لقد طال بى الانتظار ! . . .

وينظر الشيخ إلى الفتى دهشا وهو يقول :

إلى أين ياربيع ؟ . . .

ويلتفت الفتى إلى الشيخ ، وهـو يجر إلى السفينة رجله الأخرى ، وقد أخذ يشير بيده إلى الجهة المقابلة . منكرا على الشيخ سؤاله :

إلى الأبلّة . . . ألا تعرف ؟ . . . يالك من شيخ ماكر . . .

ويخرج الشيخ عن رزانته ويُرسلها ضحكة عالية ، تتجاوب الريح صـداها فتملأ على الفتى الجو من حوله ، حتى ليخال أن الوجود كله يفعل فعل الشيخ سخرية بهواستهزاء . ويستشيط الفتى غضبا ، وهو ينظر إلى الشيخ فاحصا ، ثم يخرج من صمته ويلتفت إلى الشيخ آمرًا :

عُد إلى الأبلة ! . . .

ولكن الشيخ يضع رجليه على الشاطئ في هدوء ، ويأخذ في ربط سفينته إلى وتدها بيدين ترتجفان.وإن عينيه لتكادان تقدحان بالشرر . . .

ويحاول الفتى أن يثنيه عما يفعل ، ويجذب إليه الحبل والشيخ يشُده ، ويكاد الشيخ يعيا بقوة الفتى فيتعلق بالحبل ويتشبث به بكلتا يديه . ويقعد به على الشاطئ وهو يقول :

رفقا بي وبنفسك ياربيع ! . . .

٦

كان الربيع فتى لم يبلغ العشرين ، قد رزقه الله — إلى ملاحة الوجه ، وجمال الطلعة — قوة وفتوة ، وكان ذا يسار عريض وجاه كبير ، فلقد كان أبوه أميرا على البصرة منذ حين .

وكان إسماعيل ملاّحا من ملاّحي البصرة ، شيخا قد جاوز الخمسين ، فقيرا مُعدماً ، يعيش على ما تُدرّه عليه سفينته من رزق قليل ، يناله من حمل القاصدين إلى الأبلة ، وكان أكثرهم من الذين يقصدون إليها مع الليل من أعيان البصرة ، حيث يقضون سهراتهم الصاخبة ، ثم يعود بهم مع الفجر حين يفرغون من لهوهم ومجونهم ! ...

وكان الشيخ يغيب عن الشاطىء نهاره ، ويفرغ لهؤلاء ليله ، مع نفر غيره من الملاحين الذين اعتادوا كسب عيشهم من هذه السُّبل [١] ...

ولكن هذا الجو العاصف قد أقعد الملاحين كلّهم غيره ، فلقد كان ينتظر وليداً ، وقد ترك زوجه قريبة من تلك الساعة الفاصلة ، ولولا ذلك ما خالف أصحابه الملاحين إلى البحر ، وسعى

هو يبغى شيئاً من الرزق يوفّر حاجات هـــذا الضيف القادم ، ويقوى هو به على مثل هذه الحال .

ولم يكن الشيخ — فى ذهابه إلى « الأبلة » هذه الليلة — أسعد حالا منه فى رجوعه عنها إلى البصرة ، فلقدكان البحر صاخبا حين ذهب ، صاخبا حين رجع ! . . .

ولقد كان إسماعيل شيخا من الشيوخ الذين تنزع نفوسهم إلى الورع والأخذ بأسبابه ، وكان يرى فيما يفعـــل شيئا من الإثم والوزر ، تميل به نفس الشيوخ عنه ، وترده إليه قسوة الحياة وحاجات العيش ! . . .

وحين أحاط به هول البحر فى رجوعه ، ظنّه عقـاب الله واقعاً به على ما يشارك فيه من إثم وأنسى الدنيا وما فيها ، وذكر الآخرة ، وما أُعد فيهـا للمتقين ، وتمثلت له دنياه بمساوئها التى اقترفها ، وتراءت له أخراه وجزاؤه فيها ، فكفر بالشر ومن يُعين عليه ، وآمن بالخير ورغبت فيه نفسه . وعاهد الله لئن أنجاه من هذه ليكونن من الصالحين ! . . .

٧

لهذه أولا قد أبي الشيخ على ، الربيع ، ما أراد ، ثم أليست هناك زوج من ورائه تنتظر أوبته بما كسب من رزق يصلح به من شأنها ؟ . . ولقد حصل منه على ما يكفيه فما باله لا يسرع إليها حثيثا ؟

دار هذا كله في رأس الشيخ فتشبث بالحبل لئلا يُفلت من يديه ، ولكنه وجد الفتى يغالبه عليه ويكاد ينتزعه منه . ولعله إن أفلح يمضي بالسفينة وحده إلى وجهه ، وهي ما يملك الشيخ في حياته ، وما هو بآمن أن تبتلعها المياه ، فيخرج من الدنيا صفر اليدين .

وما إن ذكر الشيخ هذا حتى ازداد تشبثاً بالحبل ، ولكنه لم يجد قوته تغنيه أمام قوة الفتى ، فأخذ يلين معه علّه يبلغ باللين ما لم يبلغه بالقوة ، ومال إليه يخوفه البحرَ وهوله ، في صوت رقيق حزين .

وما رقّ الشيخ للفتى ولاحزن له ، ولكنه رق لنفسه وحزن حين وجده مغلوبا على أمره والفتى لا يأبه لهذا كله ، فهو فتى ومن

خلق الفتيان المغامرة والاستهتار ، وهو يجيد السباحة والبحر لايخيفه . وهو متطلع إلى قضاء ليلة محبّبة إلى نفسه وقد أعد لها العدّة منذ أيام ، وما يخُلق الفتيان أن يفوتهم من ذلك شيء ، وهو حريص على أن يخلص إلى ما يريد وإن فوّت على الناس ما يريدون .

ويزداد الفتى عُنفا ويزداد الشيخ لينا واستعطافا ، ويظن الفتى أن الشيخ ما بدأ يلين إلا ليستجيب فيُغريه بمزيد من المال، فلا يجد منه إلا إصرارا على استعطافه إياه ! . . .

ويعود الجو عنيفا كما كان ، ويثور البحر بعد أن كان هدأ قليلا ، وتضطرب السفينة بالفتى وينساب الحبل فى يدى الشيخ بعــد أن لم يَقْـوَ على ضبطه فيُـدميهما ، فينقلب الشيخ إلى الوتد حيث شدّ إليه عقدة الحبل ، فيجدها قلقة تكاد تنخلع عنه ، فهوى إليها بكلتا يديه فلا يغنى شيئا ، فيميل عليها بجسمه كله يحول بينها وبين أن تفلت . . .

ويصيح الفتى بالشيخ ، يسأله العون ، ويصيح الشيخ بالفتى يحذره الهول ، ولكن شيئا من هذا أوذاك لايصل إلى صاحبه ، ويضيع مع صخب الموج وعصف الريح وحفيف الأشجار ، وإذا هو صدى يختلط بتلك الأصداء جميعا .

ويدفع الموج السفينة إلى الشاطئ دفعة ينتهزها الفتى فيتشبث بصخرة ناتئة ويتعلق بها يحاول أن يخرج إلى الشاطىء ، ويحسه الشيخ فيمد إليه يدا وقد أمسك الوتد بالأخرى يعينه على النجاة . وإذا هما بعد لأى ضجيعان على الشاطئ تحت وابل من المطر كاد يُغطيهما . . .

وينهض الفتى وينهض بنهوضه الشيخ يسانده إلى مكان ظليل ، لم يكن غير ذلك المكان الذى اختبأ فيه الفتى منذ قليل ينتظر على الشاطئ ، حتى إذا عادت إلى الشيخ حياته التفت إلى الفتى عاتبا وهو يقول :

ألم أحذرك هذا كله ياربيع ؟ . . .

ويرسلها الفتى ضحكة عالية وهو يقول :

لم تعد ذلك الملاح القوى الجرئ الذى عرفناه بالأمس ياإسماعيل . .

ويخزى الشيخ لقول الفتى الذى كاد يسلبه به أعزّ ما يملك . ويرتد إليه عنف الملاحين ويقول :

وهل أغنت عنك قوتك شيئا ياربيع ؟ . . .

ثم يشمر عن ذراعه النحيل المفتول ، ويشهره فى وجه الفتى كما يشهر الجندى السلاح فى وجه عدوه ، وهو يتحدّى ويتهكم :

لولا هذه الذراع لاختطفك اليم ؛ كما اختطف أباك فى ليلة كهذه منذ أعوام ! . . .

وما يكاد الفتى يذكَّر بأبيه حتى يكفهر لها وجهـــه وتختلج قَسَماته . ويحس الشيخ أنه قد آذى الفتى . فيضيق بما فعل ويحاول أن يقول شيئا فيخونه منطقه ، ولا يستقيم بالكلمات لسانه ، ويثنى هذه الذراع التى شهرها للتّحدى ، يرفع بها رأس الفتى وقد أطرقه ، فإذا دمعتان قد اغرورقت بهما عيناه . فيزداد الشيخ همًّا ويُقبل على الفتى فى حنان يحركه للقول ، فإذا صوته قد حُبس بالبكاء وإنه ليكتمه ! . . .

ويسكن الشيخ ويسكن الفتى وتسكن بسكونهما العاصفة، ويُظلهما نور باهت لم يكن غير نور القمر ، ينفذ فى جهد من خلل السحاب ، يُضفى على الكون مسحة من رهبة ، ويتحرك الفتى ليمضى ، ويجمع الشيخ عليه جلبابه الذى كاد أن يخرج عنه . ويمضى الفتى ، ويمضى الشيخ فى إثره يقدّران لأرجلهما مواضعها قبل الخطو ، يلتويان مع الطريق ويستقيمان معه خشية أن يسلكا زلقا أو يخوضا غمرا ، حتى إذا جانبا النهر وانتهيا إلى رأس الطريق ألقى الفتى على الشيخ نظرة وادعة ، وأومأ إليه برأسه وهو يودّعه وقد تكلّف ابتسامة اختلط بريقهـــا بعبُوسه ، ثم حيّاه فى عبارة رقيقة ،

وانفصل عنه يبغى طريقه .

ووقف الشيخ فى مكانه جامدا يشيّعه بنظراته ، ولقد هم أن يلاحقه ، ولكنه وجـــده يسرع الخطو ولا يلتفت إلى الوراء حيث خلّفه ، فتمتم الشيخ مستعيذاً مستغفرا ، ثم ولى وجهه شطر منزله ! . . .

وما إنْ وضع الشيخ رجـــله على أول الطريق حتى مَثل له أهله وما خلّفهم عليه،فنَسى ما كان ، وعاوده الوسواس فأخذ يدعو ويهمس بدعائه حينا ، ويجهـــر به حينا ، وهو يعدو فى الطريق .

٨

لقد كان زياد أبو الربيع حين ولى البصرة رجلاً قد جاوز الثلاثين بقليل ، وكانت حياته قسمةً ، لم تخلص للجد كلها ولم يغلبه اللهو عليها كلها ، ولكنه كان حين يجدّ مسرفا فى جده ، وكذلك كان حين يلهو مسرفا فى لهوه . غير أن حياته الجادة كانت لونا من تكاليف الحياة ، فكان يُصدر فيها عن ضوابط رسمها لنفسه وقيود التزمها حتى لا تُظن به الظنون ولا يُتّهم بريبة ، فكان عنيفا على الناس غليظا فى مُحاسبتهم مرهوباً فى ولايته .

أمّا حياته اللاهية فكانت لونا من طبيعته ، فكان فيها سَمحا هيّنا لينا ، ما يكاد يأخذ فيها حتى يُسلم لها القياد ويَمضى فيها إلى نهايتها ! ...

ولكنه كان متحرزاً ، قد اتخذ للهوه مكانا مُنعزلا فى الأُبُلة ، يمضى إليه مع الليل ، فى نفر من خُلصانه فيما يشاءون ويَطيب لهم .

وقد أبحر به إسماعيل منذ أعوام فى ليلة عاصفة كتلك الليلة التى أراد أن يبحر فيها الربيع أو أشد هولا . ولقد استعصى عليه

إسماعيل أول الأمر ولكنه لم يقو على أن يرفض ، ولقد حذره إسماعيل هول البحر ولكنه لم يُصغِ إلى تحذيره .

ومضى به إسماعيل وبمن معه يغالب الموج مرة والريح أخرى، وإذا هو بعد جهاد عنيف قد أفلت المجدافان من يديه ، وإذا المركب يضطرب ، يميل لشقه الأيمن فيغرف من مياه البحر غرفة ، ويميل لشقه الأيسر فيغرف من مياه البحر غرفة أخرى ، وإذا المركب بعد حين قليل قد امتلأ ماء والصحب يضطربون فيه . ويفزع لها زياد ، فيتعلق بإسماعيل فعل الغريق بمنقذه ، وإذا إسماعيل فى صراع مع زياد ، يحاول أن يفلت منه ليصلح من أمر المركب فلا يفلح ، وإذا المركب يميل على أحد شقيه ميلة لا يعتدل منها ، وإذا هم جميعا فى الماء .

ويغوص إسماعيل فى الماء فيجده وحيدا ، قد تخاذلت عنه يدا زياد ، ويطفو على الماء فيجد صحبه قد فرق بينهم الموج ، ويجد زياد أبعدهم منه . ويثور البحر ثورة تشغل كلا منهم بشأنه ، ثم تنجلى فإذا صفحة الماء لا تحمل إلا إسماعيل وحده ، وقد كاد الإعياء يغلبه ، يضرب فى الماء بيدين ضعيفتين ، ويدفع فيه برجلين لا تملكان قوة . ولكنه على هذا وذاك قد استطاع أن يبلغ الشاطىء ، فارتمى عليـــه . ويقيّض الله له من يُعنى

بأمره ، حتى يردَّه إلى الحياة ، وقد عاد إليها ليلقى الربيع على مثل ما لقى عليه أباه ، ولكنه ملك مع الربيع أن يرفض ، وحال بينه وبين موت محقق ، لهذا حمد له الربيع هذا الجميل ، ولم يعرفه إلا حين ذكَّره به إسماعيل فى أبيه ، فمضى إلى بيته لا يذكر أن إسماعيل أساء إليه بمنعه ، ولكنه يذكر له حُسن صنيعه ! . . .

٩

ويطول الطريق بإسماعيل إلى منزله على قصره ، يذكر ما خلفه وراءه فترتاح نفسه إذ جانب مَعصية ، وإذ أحسن إلى إنسان ؛ ويذكر ما هو مُقدم عليه فيساوره الهمّ ، ويحس أمراً عظيماً ، وهو الذى استقبل مولد فتيات ثلاث من قبل فلم يشعر بمثل ما يشعر به الليلة .

وما يكاد يذكر فتياته الثلاث وقد كبرن حتى يشغله الفكر ويرثى لهن ويلعن الحياة التى لم تسعفه بالغنى ، وما قصر فيها سعياً منذ قويت يداه على العمل ، ويستشعر الضيق بهذا الوليد الجديد الذى سيجيئه على كبر سن ووهن فى القوه ، ويكاد لسانه ينطلق بما لا يرضى به إيمانه ، فيثوب إليه رشده ويستغفر الله من كيد نفسه، ويمضى فى طريقه مهرولا ولسانه لا يفتأ مستغفرا .

ويبلغ إسماعيل حيًّا قد جمع الفقر والبؤس بين بيوته ، ويسلك من بينها طرقا متعرّجة ضيقه قد امتلأت بمياه المطر . فهو يخوضها خوضا قد شمّر له إلى الركبتين ، وقد احتاط لمثل هذه أصحاب تلك الدور فعلوا بعتباتها قليلا حتى لا تقتحم عليهم المياه أبوابهم

فتحيلها بركا . وكم ارتطمت رجل « إسماعيل » بتلك العتبات فآذتها ، إلا أنه كان يحمل هذا الأذى صامتا حتى لا يُقض على هؤلاء النيام مضاجعهم .

واستوى « إسماعيل » أخيرا أمام كوخ حقير ، وما إن بلغه حتى تنفّس الصعداء . وتلبث قليلا يُصيخ بأذنيه علّه يسمع شيئا ، ومد يده فى رفق يعالج المزلاج حتى لا يُحدث صوتا ، ولكن الباب ماكاد يدور على عقبه حتى علا له أزيز يحكى صوت الناعورة فى دورانها . فأمسك به بكلتا يديه يدفعه فى رفق حتى انفتح له عن ردهة طويله مظلمة .

وهمّ « إسماعيل » أن يغلق الباب كما فتحه . ولكنه ذكر أنه يحمل إلى أهله شيئا ، فهوى بيده إلى جيبه مُسرعا يتحسسه فلم يجده ، ففزع لها ، وهوى بها ثانية يستوثق فلم يجد شيئاً ، فكاد يطير لها لُبه ، وأخذ يعبث بجيبه وهو لا يكاد يصدق ساهما حزينا ! . . .

لقد فقد هذا المال الذى خرج من أجله فى تلك الليله الصاخبة ، وماهو بُمغنٍ عن أهله شيئا حين يلقاهم فارغ الجيب ، وما نَفْعُهم به إن لقوه وليس فى يده شىء ؟ ! . . .

دار هذا كله فى رأس الشيخ فخرج مُسرعا لا يلوى على شىء ، يريد أن يعود إلى الشاطئ حيث كانت بينه و بين « زياد » حركة ؛

فلقد ظن أنه لم يفقد ما فقد إلا هناك ، وفيما هو يضع رجليه على عتبة بابه ليرجع إذا هو يستقبل رجلاً على فرس أبيض . قد حمل أثقالا ويكاد ينخلع فؤاد «إسماعيل» لرؤيته : فما لهذا الحى عهد بهذه الأفراس ، وما فى مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل يتحرك الناس إلى الناس ، وما فى مثل هذا الجو العاصف الممطر يسعى الزائرون ، ولا إلى مثل كوخه يقصد هؤلاء الراكبون . . .

وما شك « إسماعيل » عندها أنه أمام عفريت من الجن قد صوِّر له فى صورة إنسى على فرس ليكيدَ له ويضاره ، فارتد على عقبه إلى بيته فزعا يريد أن يدخله ، وأحس الرجل منه هذا الفزع ، فترجل عن فرسه ، واقتحم عليه البيت يناديه باسمه .

وما سمع « إسماعيل » اسمه على لسان الرجـــل حتى ازداد فزعه فما يعلم أن له صديقا من السادة يملك فرسا مُطهَّما . وجمد فى مكانه ترعد فرائصه ، ويدركه الرجل ويمس بيده كتفه . فيكاد « إسماعيل » يقع إلى الأرض من الفزع . فينهضه الرجل وقد أدرك ما عنده ، ويقول له لتطمئن نفسه :

ألم تكن مع « الربيع » منذ قليل ؟ . .

ويجيبه « إسماعيل » بصوت تقطعه عليه الرعدة :

نعم كنت ، وما أدراك بها ؟ ! . . . ولا يمهله الرجل فيأخذ بيده

يقوده إلى خارج الدار حيث ترك فرسه وهو يقول له :

لقد أرسلنى إليك بما يعينك على أمرك .

ومايكاد ينتهى إلى هذا من قوله حتى تمتد يداه إلى ماعلى الفرس من أوساق فيرفعها عـــنه وَسقا وَسقا ، وكلما رفع وَسقا ناوله « إسماعيل » ، فيحمله هذا إلى ساحة بيته ، حتى إذا ما انتهى من الأوساق ناوله صُرة من مال . تلقـّاها منه «إسماعيل» وإن يديه لتكادان تهصرانها هصْراً من شدة ما انضمتا عليها ! ...

وامتطى الرجل فرسه ، وانثنىَ به راجعا ، ولكنه قبل أن يمضىَ ودّع « إسماعيل » ، وهو يقول :

إذا كان لك حاجة فاقصد إلى « الربيع » فما أسعده أن تلقاه بحاجاتك ! ...

ويقف « إسماعيل » جامدا فى مكانه ، وهو يُشيّع الرجلَ بنظراته حتى يختفى ثم يعود إلى نفسه ، وكأنه يفيق من غَشْية ، فيتحسَّسُ الصرة بين يديه ، ويدنيها من أذنَيْه ليسمعَ جلجلةَ الدنانير . فيعلم أنه غيرُ مخدوع ويرتدّ إلى داره ، ويغلقَ الباب من خلفه ، وهو لا يبالى هذه المرة أعلاَ صوته أم هان . ويُقبل على الأَوْساق يتلمّسُ ما فيها بأصابعه فلا تصدقـُه ، فيفتحها واحدا بعد واحد فيرى ألوانا مختلفة من طعام لم يَجْر له على لسان ، ولا

ضمه فمه ، ويرى ألوانا مختلفة من لباس لم يمس مثلها بدنه ! ...

ويكاد يمضي مسرعا إلى أهله حيث يهجعون . إلا أنه يعود إلى الباب في خفة يستوثق من مترسه المرة والمرة ، حتى إذا اطمأنت نفسه جرى يصيح باسم زوجه مرة ، وباسم بناته واحدة بعد الأخرى مرة ثانية .

وإذا هو يلقاهن قد استوين في مضجعهن فزعات ، يحسبن شرًّا قد أصاب الأب ، ولكن واحدة منهن لم تنهض ؛ فقد لبثت في مرقدها تضم إليها صغيرا لم تجد ما تلبسه . فأدخلته في جلبابها . وهي حين فاتها أن تنهض مع بناتها لم يفتها أن تعتدل برأسها . وتتطلع إليه بعينيها

وقد شاع في جنبات الحجرة نور خافت يفهق به مصباح زيتي قد استقر في كوة صغيرة . وما كادت العيون تلق العيون حتى انفجر الرجل باكيا . وما كاد يبكي حتى ارتمى يقبل بناته ويضمهن إليه ضما شديدا دون أن ينبس بكلمة . وما كاد أن يطفىء جذوة هذا الحنان من نفسه ، حتى مال إلى زوجه ينهضها ، وهو أشوق ما يكون لتقاسمه فرحته ، فإذا هو يراها تدفعه عنها برفق ، وإذا صوتها تخنقه عبرة ! ...

ويرى الوالد فتياته الثلاث قد أحطن به وقوفا متهللات

الوجوه وهن يتبادلن بينهن لحظاتٍ خاطفةً يعيَا الأب بمتابعتها ، غير أنه يدرك أن وراءها شيئا ، وأن هذا الشيءَ لاشك سعيدٌ ، فينظر إليهن مرة ، وإلى أُمهن أخرى علّه ينفذ إلى ما يُخفين عنه .

ويسود الجمعَ صمت ليس فيه إلا حديثُ العيون ، ويكاد الأبُ يظن بنفسه الظنون ، ويكاد يتهمُ بناته وزوجه . وأن صياحه بهن على هذا النحو الذى لم يفعله من قبل ، قد رابهن فى أمره ، فينهض متثاقلا وهو يحاول أن يقول شيئا ، ولكنه ما يكاد يستوى قائما حتى يلفته إلى الأم حيث ترقد ، صراخ هذا الرضيع الذى اختفى عنه بين جلد أمه وجلبابها ، فيرتمى عليه ضاحكا بين تهليل بناته وبَسَمات زوجه .

ويُقبل الوالد فى لهفة بيدين مرتعشتين ، يريد أن يستخلص الوليد من حضن أمه ، وإن دموعه لتكاد تنحدر على خديه فرحا ، ولكنه ما يكادُ يدنو حتى ترده الأم ردا رفيقا كما فعلت فى الأولى !...

وقد حسبها الأب حين دفعته أولا ، دفعته دفعة المُثقل يؤذيها النهوض ، فقنع ... ولكنه علم أنها فى الثانية لاتأمَنُ يديه المرتعشتَين على وليدها ، ولكنه عزّ عليه أن يرتدّ ، وأقبل عليها يستخفه مزيجٌ من سرور ، قد تنوعت أسبابه .

ألمْ يكن قبل أن يصلَ بيته قلِقاً على زوجه أن يُلم بها

مكروه ؟ ! ... وها هوذا قد رآها سليمة معافاة ! ...

ثم ألم يكن قد خرج ليكسب لهؤلاء دُرَيهات ، تقوم ببعض شأنهن ، فها هو ذا قد ملأ بيته خيرا كثيرا ؟ ! ...

ثم ألم يضق منذ قليل بأسرته التي شبت فيها بناته الثلاث ، وقد عضلهن فقرُ أبيهن وهوانُ قدره ، فإذا هو الآن محسوبُ الأمير،ولن يهون من كان الأمير راعيَه ! ...

وغيرُ هذا كله فلقد كان الأب مشوقاً إلى أن يُنجب ولدا ، يشد أَزْرَ هؤلاء البنات الثلاث ، وها هو ذا قد من الله عليه بهذا الوليد الذي ما شك أنه ولد ! ...

إذن فلم لا يختلط على هـذا الشيخ عقلُه ؟ ... ولم لا يغلبه الفَرَح فيستخفَّه ؟ ! ... وكيف بمثله يرى الدنيا قد بَسمت له بعد عبوس ، وأقبلتْ عليه بعد إدبار ، وأولتْه كلَّ ما يتمنى فى طرفة عين ، ثم لا يطيش لذلك لُبُّه ؟ ! ...

☆ ☆ ☆

لم تَقوَ يد الأم التي امتدت لردِّه ، وسَرعان ما انثنتْ على عاتقه رقيقة فى انثنائها كما كانت رقيقه فى امتـدادها وهوى الأب على وليده فهاله أن يراه عارياً ؛ كما وضعته أمه . فانتفض قائما وطوّح بيد زوجه جانبا ، دون أن يشعر ، وانفلت مسرعا وهو

يتمتم بكلمات سمع منها البنات ، وسمعت منها الزوجة ، ذكر المال والطعام والملابس . فأيقنوا أن عائلهم قد مسّه سوء ، فاضطربْن وجرت كُبراهن فى إثره ، ووقفت الاثنتان إلى جانب الأم ، تبادلانها نظرات كلها أسى ، وإن قلوبهن ليكدْنَ ينفطرْن ! ...

وبينما ثلاثتهن فى صمتة الأسى ، لا يقطعها عليهن إلا صراخ متقطع ضعيف يُرسله الوليد ، إذا هن يُفقن على ضحكات الأب عالية مشفوعة بضحكات الأخت . وإذا هذه الضحكات تكاد تهز عليهن البيتَ هزًّا ، وإذا هى تكاد تفيض فى جنباتَ البيت بشرا ، وتملؤه حُبُورا ، وكأن لها فى كل ركن صدًى ، وفى كل زاوية مُجيب ، فاندفعن مغلوبات على صمتهن ، يشاركن فى هذا السرور ، واندفعت البنتان فى خفة ، وما تحركتا للقاء الأب حتى حتى أشرفَ الأب يحمل بين يديْه صرة يهزُّها بين يديه لتشبعَ جلجلةُ الدنانير فى الآذان، وهو يشفعها بصياحه، ومن ورائه ابنته وقد حملت ماتطيق ، وهى تُزغرِدُ تارةً ، وتغنّى أخرى !...

عندها وقفت البنتان جامدتين مشدوهتين ، وعندها كادت الأم تنهض معتدلةً فى فراشها ، غير أنها أحست أن وليدَها أوشكَ أن يخرج من جلبابها . وأن ضعفًا يلعب برأسها ، فاستقرت

كما هى تتطلع بعينين جاحظتين !...

* * *

ما شكت الأم — ولاشك معها بناتها يوما — فى أن أباهن أمين اليد ، عفّ النفس ، يؤذيه أن يلمّ بحرام ، أو ينال غير ما هو له . لقد عاش وعشن معه على فقر مدقع ، ليس لهم من متاع الدنيا إلا الكفاف . وكم بتن وبات معهن على الطوى أياما ، ومع العرى أخرى ؛ وما ذكرن أنهن ضقن بذلك ولا ضاق هو به ، وقد رأين ورأى هو معهن أن هذا حظهن من الحياة فقنعن وقنع هو معهن ، وما حاول أن يؤجر بنتا من بناته — فيما تؤجر له الفتيات الفقيرات لتُعين أهلها !...

ولقد خرج أبوهن تلك الليلة وما يملك شيئا ، وما فى البيت شىء يُعين الوالدة على أمرها ، ولا للوليد شىء يستقبله به . ولقد عزّ عليهن أن يخرج فى تلك الليلة القاسية التى قبع فيها كل ساع فى بيته ، ولقد كدن أن يمنعنه ، ولكن الحياة ردتهن صاغرات فتركنه يخرج ساعياً على مضض منهن ، وهن مشفقات عليه .

وها هوذا الأب يعود بمالم يعد به الساعون أمثاله ممن قدّر عليهم الرزق تقديرا ...

ترى هل اضطرت الحياة الأبَ لأن يركب فيها مَرْكَباً زَلِقاً ؟ ... وهل دفعت الحياة أباهن إلى طريق غير محمود ؟... وهل عاد إليهن أبوهن سارقا غاصبا، وما هكذا عهدْنَه ؟ ...

ويطالعُ الأبُ زوجــه ، وبنتَيْه ، فيجدُ الوُجومَ قــد مَلَكَهن ، وينظرُ إلى وجوهن فيجدُها عابسةً ، فيقفُ هو الآخرُ فى مكانه جامداً عابساً ، وما تكاد تراه ابنته الكبرى وقد لحقت به حتى يجمُدَ لسانُها فى فيها ، وتكاد تعثرُ بما تحمل !...

ويدير الأبُ نظراتِه فى وجْهَى بنتيْه مرة ، وفى وجــه الأم أخرى مستفسرا ، ولقد الْتَقى فى روعه أن وليده لاشك قضى نحبَه ، وأن هــذا الوُجوم وهذا العُبوس لذاك ، وكذلك ظنت ابنتُه من خلفه ، فرمى بالصرّة من يديه وأجْهَش هذا الصوتُ الضاحكُ بالبكاء ، وقفز إلى حيث ترقد الأم فإذا ما قدّره هو لم يقدره الله ، فنهض كما كان فرحا ضاحكا ، وأشاعت ضَحِكاتُه السرور ثانية فى أرجاء البيت ، وامتدت يده إلى الصرة يقطع رباطها ، والتفَتَ به بناته يمتعن أنظارهن ببريق هذا الذهب ، ويتحسّسنه بأصابعهن ؛ فما لهن عهد بمسه ، ويحركْنَه بأناملهن يتسمَّعْن رنينه ، وأبوهن من بينهن يحدثُهن حديث

هذه الدنانير ، وحديثَ هذه الملابس ، وحديث هذا الطعام ! ...

وما يكاد ينتهى حتى يشير إلى بناته حيث ترك بقية ما أهدى إليه فى عَرْصة الدار ، فيمضِين مسرعات ويَعُدْنَ وقد حملت كلٌّ واحدة منهن حِمْلها ، فإذا الغرفة مليئة بالخير الكثير ، وإذا هن جميعا مشغولاتُ الأيدى بتنسيق هذا كلّه ، وقد نَسين ما أسلفَ لهن الدهرُ من بُؤْس وشقاء ، وعددن أنفسهن من الذين أنعم الله عليهن ! ...

ويلهِينّ الأنس بهذا الخير فيسهَرْن حَوله ، ناسيات أنهن قضَين أُمْسيَّة شاقة حول أمهن ، ولا يذكرن بطونهن التى لم يدخلها طعام منذ أن ذقن لقيمات غير مأدومة مع الظهر ، ثم يغلبهن الإعياء فيرتمين على تلك الحصر البالية التى يَقض الجنوبَ مسُّها ، إلا جُنوبهن وجنوباً أمثال جنوبهن ألفت النوم على الحصى ، وقد قبضت كل واحدة منهن من هذه الدنانير قبضة ، تحرص على أن تأنسَ بها نائمة كما أنست بها يَقظة ! ...

١٠

لقد علم الوالد أن وليدَه الذى ارتجاه ذكراً ـ وماشك ـ أنثى، فما اسوَدّ لهذا وجهه ولا حزِن ، ولقدخفق لهاقلبه خفقة، ولكنه سرعان ما استقر ؛ ولقد صمت لها صمتة ، غير أنه سرعان ما انطلق ؛ ولقد كاد لسانه أن يخونه بالا تحمدُه منه بناته ، فأجراه بما زاد أنسهن به ورضاهن عن أنفسهن .

ولقد رزقه الله من البنات ثلاثا ، وزادَهن بعد فترة طويلة واحدة ، تفاءَل الرجل بها ، وكانت لأخواتها رابعة ، فلم يَشأ أن يجعل اسمها إلا هذا الاسم الذى يشير إلى رُتبتها ، فسماها وابعة ، ! . . .

ولقد أطلق الرجل يدَه فيما ساقه الله إليه من رزق ، أو لقد انطلق هذا الرزق ولم يملك الرجلُ أن يحول بينه وبين هـذا الانطلاق ، فلقد جاء على ظمأ وجوع وعُرْى ، فما كاد يُرْوى ويُشبع ويَكسُو حتى لم يبق منه شىء ، وإذا الرجل وآله أسوأ حالا من ذى قبل ؛ فلقد عرفوا — قبل هذا الرزق الذى ساقه الله إليهم — فِعل الظمأ والجوع والعُرى فلم يَضرهم أن يظمئوا ويجوعوا ويعرَوا ، وما يُحسون أنهم خسروا شيئا أو أصيبوا بشىء،

ولكنهم بعد أن رَوَوا وشبعوا واكتسوا . كان فى فقدانهم شيئاً من هــذا إحساسٌ بأنهم سُلِبُوا حقا وحُرِمُوا ما لهم، فألمت نفوسهم لما صاروا إليه من ضَعَة بعد عز .

وكان أول ما فكر فيه الرجل أن يقصد « الربيع » يسأله ، ولكنها كانت مُرة على نفس « إسماعيل » ... فلقد عاش الرجل كادًّا ولم يعش سائلا ، عاش يمد يدَه يقبض بها ما يراه جزاءه على عمله . ولم يمدُّها يقبضُ بها ما يراه غير ذلك ؛ مما يشمّ فيه رائحة الإحسان ! ...

ولقد اضطره نهجه أن يعمل حين يستريح الناس ، وأن يسعى والناس هجوع : لا يضيق بالعمل ولا يَبرم بالسعى ... ولقد كسب ولكنَّه لم يدخر ، لأنه كان عليه أن يوفر حياة كريمة لزوجــة وبناتٍ ثلاث ، ولم تكن مهنته مهنةً مأجورةً أجرَها العادل ، وكم فى الحياة من مهن تـُخلق مظلومة فى الحياة ، على أصحابها فيها الكـَدُّ المتصل ، ولهم منها الرزق القليل ؛ وكم فى الحياة من مِهنٍ ميمونة لا تُكلف ذويها إلا جــهد المُقِلّ ، وتفيض عليهم بالرزق الكثير ، إقلالٌ مع الأولى ينزل إلى حــد الإعدام ، وإكثار مع الثانيـة يفيض عن ذِرْوَة الإشباع ! ...

ولقد فكر الرجل فى هذا كله ، ولكنه لم يملك أن يخرج عن مهنته التى ورثها أباً عن جد ، ولم تسلمه مهنته هذه إلى أخرى غيرها تتصل بها أوسع رزقا ؛ لأنه لم يتوفر له المال الذى يضمن له هـذا ! . . .

فرضى الرجل بالحياة ، ورضيت به الحياة مع من ترضاهم من عمالها الأشقياء ! . .

ولقد عاش الرجل مكدودَ الجسم مكدودَ الذهن ، أما عن الأولى فبُرهانه عليها تلك الساعات الطوال التى كان يتحملها ، وأما عن الثانية فبُرهانه عليها هؤلاء البنات اللائى حبسهن عن التبذُّل ، يريدُ أن يوفرَ لهن حياة كريمة فلم يُفلح ! . . .

لهذا كان سرورُ الرجل بهذا المال الذى ساقه الله إليه فى لَيْلَة ، وأخذه منه فى ليلة — عظيما ! . . . ولقد حسب أنه مستعين ببعضه على شىء ، ومستعينٌ بسائره على شىء آخر ؛ وما كان يحسَبُ أنَّ مطالبه كانت أوسعَ من أن يَسُدَّها هذا القدر الذى فرضه لهـا ، وأوسعَ من أن يملأها هذا الرزق المَسُوقُ إليه كله ! . . .

ولقد قبِل الرجل هذا الرزق فى ساعة هَصرته فيها الحياة فلم تترك لفكره فرصة ، ثم هو قد عده هبةً من تلك الهبات التى

يتفضل بها العظماء على من هم دونهم ، وما أكثر ما كان يشيع هذا فى العصر الذى يظله ، ثم ألمْ يُنقذ بها حياة ، وما أغلى الحياة ،وأغلى ما يُمنح من أجلها ، ويُدفع ثمناً لها ! ...

بهذا كله أقنع الرجل نفسه بعد أن قَبِل ما قبل ، وبعد ما أنفق ما قَبِل ، ولكنه لم يستطع أن يقنع نفسه بالعودة لسؤال « الربيع » ثانية ، لقد كانت الأولى أجراً أو شبه أجر ، ولقد كانت الأولى والفكرُ مسلوبُ ، ولكنّ الثانية إن كانت فلن تكونَ إلا سؤالا كما يفعل السائلون ! ... وهذا ما تأباه نفسُه ، ثم هو يملك هنا فكره ، وبعيدٌ أن يُزينَ له فكرُه هذا الشيء الذى رآه باطلا ! ! ...

لهذا ما همَّ الرجل بسؤال « الربيع » حتى عدَل ، وسرعان ما نسى ونسى معه أهله أنهم كانوا سعداء ساعة من الزمان ، وأن أعينهم امتلأت ببريق الذهب ، وأن أيديَهم أنست بمسّه ، وأن آذانهم استمعتْ لجلْجلَتِه ، كما نسى الرجل ونسىَ معه أهلُه ، مسَّ الملابس اللينة لأجسامهم ، كما نسُوا جميعاً لذة الشبع وحلاوته ، وعادوا إلى ما كانوا عليه من قبلُ ، وكأن شيئاًمن ذلك كله لم يكن ! ...

١١

ولقد أغرى الكسب « إسماعيل » أن يعملَ مزيدا من الساعات ، فحمل هــذا راضيا ، يظلم جسمَه ليُسعد نفسه ، ولو أنه فعل هــذا والسنّ مبكرة ، ما أودى فى جسمه ، وما انتهى به هذا الإيذاء إلى علة لم تمهله غيرَ أيام ودّع بعدها الحياة ، وكأنه لم يكن . وكم يودع غــيره الحياةَ من ذوى الثراء ، ولكنهم يَبْقون بين أهليهم بما خلّفوا لهم من مال يعيشونَ عليه ، لا يفقدون منهم إلا شخصهم . ولكن « إسماعيل » ودّع كما يودِّع الفقراء أهلهم ، فيودِّعون بفراقهم كل شىء : فلقد كان وجودُ أهله موصولا بوجوده ، بل لقد كان وجوده هو كل شىء لهم ، فإذا هم قــد حــرموا الوجودَ كله ، حين حــرموا أباهم ! ...

كانوا خمسةً : أم لم تنهض بواجبها فى البيت بعد أن وضَعتْ « رابعة » ؛ لأنها لم تمكّن لجسمها فتقوى به على حمل متأخر ، ووضع مرهق ، مع غذاء يسير ، فما إنْ وضعت « رابعة » حتى أحستْ أنها وضعت عنها كل قوة وكل نشاط ! ...

وفتيات ثلاث شبين هزيلات نحيلات ، يملكن قـــدرا من قوة الشباب ، ولا يملكن ما يُعن به تلك القوة ويُسعفنها ! ...

وفتاة صغيرة هي « رابعة » قد جاوزت الخامسة بقليل نشأتْ على الرغم من هـــذا البؤس المحيط بَـضَّـة ، فكم جاعَ كلّهن وأطعمْنها ، وعَرى كلّهن وكسَونها ، فهن جميعا يملكن أن يصبرْن على الجوع وهي لا تصبرُ ، وهن جميعا يقوَيْن على العُرى وهي لا تقوى ، ثم هن قد علّمهن الجوع أن يكن رحيمات فرحمْنها ، وأكسبهن العرى أن يكن شفيقات فحَنَوْن عليهــــا ، وهكذا عشنَ لها تلك السنين الخمس ، يذكرن أنهن سعدن بمقدَمها سعادة عريضة ، وإن ودعت غير مأسِّية ، فجزَينها عن ذلك ما يستطعن ، وآثرْنها بما يملكن ! ...

غير أن الأمَّ التي قعدبهــــا الضعف عن أن تعملَ ، قعد بها المرض بعـــد وفاة زوجها عن أن تنهض ، ثم ذهب بها هذا المرض غـــير ممهل ، فلحقت بزوجها بعد شهر وبعض من الشهر ! ...

ولقد عاشت تلك الأسرة حين مرض عائلها ، وبعد أن مات ؛ كما تعيش أُسر كثيرات مثلها تجوع يوما وتطعم يوما ، ودخل على هذا البيت الرزق الممنوع الذي عاش ربه حياته يردُّه عنه في إباء ، بل لقد سعى إليه

هذا البيتُ سعيا ولم ينتظره ، فما فى طبع المحسنين ، أن يُعطوا غيرَ مسئولين ، وما فى طبعهم أن يعطوا مع كل سؤال .

ولقد حَـنا على هذا البيت جيرانٌ سوَّى الفقر بينهم . ولكنهم ملكوا أن يعطوا قليلا من قليل ، حـين كان الخطب جديدا فحزنهم ، وحفزهم لهذه التضحية ، ثم أمسكوا حين نَسُوا بما يعانون هم ما تعانيه هـذه الأسرة ، ورأوْا أنهم وإياهم فى المحنة سواء ! ...

وقبلت هذه الأسرة الإحسان يسعى إليها ، فألفته ولم تتأبَّ : فالجوع أقسى من أن يتـأبىَّ عليه جائع ، ثم سعت هى إليه ، حين لم يطرُق هو عليها بابها تطرُق هى عليه بابه ، تُضله مرة وتهتدى إليه أخرى ، ثم أصبحت تُضله مرات كثيرة ، وتهتدى إليه مرات قليلة . حتى انتهت بها الحال أنها أمست تُضلُّه ولا تهتدى إليه .

لذا ما إن نفض البناتُ الثلاثُ أيديهن من تراب الأم حتى عفـْنَ السؤال بعد أن عافهن المسئولون ، ورأيْن السعى أبقى على كَرامتهن وأحفظَ لحياتهن ! ...

ولقـد أقدمْن عليه يدفعهن شىء ويمنعهن شىء ، يدفعهن الجوع القاصف والعُرى العاصف ، ويمنعُهن تبذُّل كان أبوهن

يخشاه عليهن ، وخوف من فساد ما أقوى السادة عليه ، وما أضعف الموالىَ عن أن يأبينَـه ! ...

ولكن الجوعَ قد ذُقنه ، والعُرىَ قد أحسسنَـه ، أما التبذُّل فالسؤال دونه ، وقد فعلنه ، وأما الخوفُ فلعـل الله يحفظُ منه ويمنع ، لم يكن لهذه الأسرة أن تختار وإن بدت أنها مختارَة ، ولكنْ كان عليها أن تهوِّن على أنفسها ما ظنتْ أنه شر ، ففعلت ، وسَعت إلى العمـل اثنتان منهن هى الكبرى والوسطى ؛ وبقيت الثالثة ترعى الصغيرة وترعى البيت ! ...

١٢

لقد نَسي « الربيع » « إسماعيل » ، فلم يعد يذكرُه حين لم يعد يلقاه مع الليل على شاطىء النهر كعادته ، فقد تحول « إسماعيل » منذ تلك الليلة العاصفة عن عمل إلى عمل ! .. لم يترك الملاحة ، وإنما ترك نقل الناس إلى نقل أثقالهم وتجاراتهم ! ...

ولقد لبث « الربيع » فترة يرقب مجيء « إسماعيل » إليه شاكرا أو سائلا ، فلم يظفَر منه بهذه أو تلك ، ورأى نفسَه قد أحسن غيرَ مُقصر فاطمأن ، ومضى هذا الماضى من وعيه جملةً ولم يعدْ يذكره .

وخطت الحياةُ « بالربيع » خطوة عريضَةً فصلتْه عن دنيا الفارغين إلى دنيا العاملين ؛ فقد أصبح قبل وفاة « إسماعيل » بقليل أميرًا على البصرة ، كما أصبح قبلها بقليل زوجا ، فشُغل بالإمرة ، يقضى فى حياة جيل من الناس ، يجلسُ لهم نهاره ينظر فى أمورهم ، وشغل بالزواج يرعى أهله ليلا ، وكفتْه الإمرة عن أن يُلم بالدّنايا جَهرة ؛ فلقد كان قبلها يحمل وِزْرَ مسلم من المسلمين ، وهو بعدها يحمل وزر إمام للمسلمين ؛

وما أهون الأولى وأعظمَ الثـــانية !...

وحماه الزواج من أن يكون جريئا على الباطل ، وكذلك كان يعيش المتزوجون ! . . .

غير أنه لم ينس حَظ الأمراء من التوسع فى مباهج الحياة ، فجلس للغناء فى قصره ، وملكَ القيَـان الحِسان ، واجتمعتْ له الوانُ الترف كما شاءها ، والتفتْ حـــوله بطانةٌ توفر عليه أرتيـاد مجالس اللهو ، والاختلافَ إلى أماكن التسلية ! ...

* * *

وأظلَتْ البصرة أعوامُ جدب ، لم تُعطِ فيها الأرض ثمراتها ، فجاع الناس ، ونَفَق الحيوان ، وحمل الفقراء بؤسَ الحياة ضعفيْن ، وغنمها التجار ، فملئوا جيوبهم ، وأفرغوا جيوب الناس ! . . .

وشقى « الربيعُ » لشقاء الناس : مختارا حينا كإنسان يؤذيه ما يؤذى إخوانه ، ومضطرا حينا كأمير عليه أن يهىء لرعيته أمناً واطمئنانا ! ...

وكم نزل « الربيعُ » إلى الأسواق ، ونزل معه اتبَاعُـه يرقُبون الأحوال عن كثَب مُستخفين مرة ، ومعلنين عن أنفُسهم أخرى ، وكم رغّبَ وكم أرهبَ ؛ ولكن الناس هم

الناس : قليل منهم المصلحون ، وكثير منهم المفسدون ، قليل منهم من يملكهم ضميرٌ وازع وعقل رادع ، وكثير منهم من لا يقَرُّ إلا إذا جمع ما فى بطونِ الناس فى بطنِه ، وما فى جيوب الناس فى جَيْبه ، ويجدون فى أمثال تلك الأوقات فرصتَهم المواتية ، فيعينون على الناس ولا يعينونهم ! . . .

* * *

وينزل « الربيعُ » يوما إلى السوق فى جنده فيزدحم الناس عليه ، ما بين طامع وشاك ومستعين ، وهــل كان أهل « البصرة » حينــذاك إلا بين طامع وشاك ومستعين ؟ . . .

وخرجت الفتياتُ الثلاث ، وقد تعلقتْ « رابعة » بيد إحد هن ، علّهن يصبن خيرا على يد الأمير ، بعد أن بِتْنَ على الطَّوَى أياما ، وتشتدُّ زحمة الناس ويموج بعضهم فى بعض ، وإذا يدُ « رابعة » قد أفلتتْ من يد أختها ، وإذا هى ضالة تقذف بها الجموع بعيدا عن أخواتها . .

وتُعول « رابعة » بما ملكت من صوت فتاة فى السابعة ، لم تذق طعاما تقوى به على البكاء العالى ولا الصراخ المتصل ، ولا يسمع لها الناس ولا يُصيخون ؛ ولكن رجلا واحدا من بين هـذه الجموع الكثيرة قد شغل بها ، وعناه أمرُها ، فقفا

أثرها، ولا حقها فى خطوها!... ولكن «رابعة» او جست منـــه خيفة، فجهدت أن تُبعد عنه، وكانت كلما أبعدت عنه انفردت عن الناس، حتى انحازتْ إلى طريق خالٍ وهى تحسب أنها قد انقطعت عنه، وانقطع هو عنها، وتنظر فتجده خلفها، فتنطلق عادية، وينطلق هو وراءها، فإذا رِجْلها ترتطمُ بصخرة فتعثروتنكفئُ على وجهها باكية متوجعة، ولكنهاتذكر أن الرجـــل فى إثرها فتنسى ما أصابها وتهم لتنهض، فإذا يدان قويتان تُقيلانها من عَثْرتها، وإذا هما تحملانها!...

لقد جهدَت «رابعة» أن تخلص من هذا الرجل فما أفلحت، ولقد همت أن تستغيث فخانها صوتُها، وذهب عنها وعيها، ولم تَدْرِ من أمرها شيئاً!...

وانتبهت الأخت فزعةً فلم تجد يسارَ أختها فى يمينها، وهى التى شغلها الفكر فـــيما حولها، فمشت تخطو وسط الزحام بيمين مقبوضة على أغرارها، لا على شىء آخر، ولقـــد خيل لها هذا الفكر المضطرب أن يمينها مملوءةٌ دفئا ونبضا! ولم تتبين أن الدفء دفؤها والنبضَ نبضُها إلا حين أفاقتْ بعد غشية، فلم تجد أختها معهـا.

وما فتئت الأختان أن علمتا، ثم ما فتئت الثلاثة أن تفرقن

فزعات مهرولات ، يبحثن عن « رابعة » ! . . .

لقد كانت عزيزة عليهن جميعا لصغرها ، وهكذا يحتل الصغار مكانة من القلوب ، أعزها إلى الأنس بهم دمى متحركة أو أعزها إلى سكون الإنسان إلى كل مغلوب على أمره ، يراح له ويطمئن بضمه إليه ، إشباعا لسطوته وتلذذا بقوته ؛ أو أعزها إلى رحمة موروثة ، ذاقها الإنسان صغيرا فى ظل أبويه يفيض بها قلبه حين يملك ما ملك أبواه وفاء بوفاء ، اعزها إلى هذا أو غيره من مذاهب الناس فى تفسير هذا العطف ، ولكن لا تنس أن تعزوها أيضا إلى أن « رابعة » كانت يمنا على الأسرة حين نزلت بها ، وقد قدرت الأسرة أن تكون يمنا عليها دائما وإن خانها هذا التقدير حينا ، فما أشد تعلق النفوس بالآمال ، ثم أعزها إلى أن الأب لم يودع الحياة حتى أوصى بها ، وأن الأم لم تكد تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى أوصت بها هى الأخرى ! . .

* * *

لقد حفيت أقدام الأخوات الثلاث وأدماها السير ، ولقد بح منهن الصوت وكاد يحتبس ، ولقد دمعت العيون حتى نفد ماؤها ، ولقد لطمن الخدود حتى كدن يسلنها دما ، ولقد شققن الجيوب حتى كدن يخرجن من أهدامهن .

ولكنهن عُدْن جميعا بعد مَطَاف طويل ، أمضين فيه بياض اليوم وشطْرامن سواده ، دون أن يعرفن لها خبراً أو يهتدين إلى شيء ، فطَوَيْن الليل ساهرات باكيات ، حتى إذا ما آذَنَهن الصبح بمطلعه خرجْن ساعيات على غيرِ هدى ، تضرب كل واحدة منهن فى سبيل ! . . .

وهكذا كن يفعلن مع كل نهار إذا أصبح ، ومع كل ليل إذا أظل ، حتى ملكهن اليأس وفقدن كل رجاء ، فانطوين على أنفسهن لهفات حسرات ، لا يذكرنها — وكثيرا ماكنّ يذكرْنها — إلا معَ البكاء الطويل والحزن الممتَدّ ! . . .

١٣

ولقد كانت تجارة الرقيق حرفةً يعيش عليها كثير من التجار، وكانت الجوارى أهمّ ما يشغلهم ، وكانت تنشئةُ الجوارى على العَزْف والغناء أعْنَى مايُعنى به هؤلاء ، يختارونَ لها الجميلات الوسيمات !...

وكانت « رابعــةُ » ، على حداثتها ممدودة القامة ، مشرقةَ الوجه ، واسعة العينين فى دعَج ، مزجَّجة الحاجبين فى التَّمام ، مرسلة الشعر فى تَثَنٍّ ، ممشوقةَ القدِّ فى استواء ، وكان هذ كلُّه يحدِّث بما ستشب عليه الفتاة من جمال رائع ، وحسن لافت ؛ كما كانت متكلمة لَبقة ذات ذكاء متوقد .

ولقد شُغل بها الرجل حين رآها ، وزاد شغلا بها حين سمعها تحاور أخواتها فى الطريق سائلة مستفسرة ، فتبعها يتحين الفرصة لاختطافها ، حتى إذا ما أمكنته لم يدعها تُفلت ، وفَرّ بها !...

ولم يمكث بها الرجلُ طويلا فى « البَصرة » ، بل سرعان ما حملها مسرعا إلى « الأُبلَّة » ، يبغى بها أستاذًا من هؤلاء الذين

كانوا يتلقفون الجوارىَ الصغار من أيدى الناخسين ، ينشئونهن عازفات مغنيات ؛ منهن من تنبُه فيرغب فى شرائها الملوك والأمراء . بالثمن المفحش والعطاء الجزيل ، ومنهن من لا تبلغ مبلغ الحاذقات ، فيطمع فيهن من دون الملوك والأمراء والسَّراة ، ويكتب لهن حظ دون الأُوليات . والأساتذة المنشّئون كاسبون على الحالَيْن مُربحون ! ...

وكان لهؤلاء الناخسين حيلهم الواسعة ، يجمعون الفتيات من هنا ومن هناك ، خطفا وسلبا ، يعرضونهن فى أسواق الرق حينا ؛ كما تباع السلع ، ويُقيِّمْن كما تُقيَّم ، أو يدفعونهن إلى هؤلاء الأساتذة ، يأخذونهن بهذه التَّنْشِئة الخاصة ! ...

* * *

وعاشت « رابعةُ » فى بيتها الجديد تحمل اسماً غير اسمها ، وتُعْزَى إلى بيئة غير بيئتها ، تُساس بالعنف حينا وبالإغراء حينا آخر ، والزمن يمضى والأيام تُنسى حتى باتت تذكر أيامها الأولى ؛ كما يذكر الإنسان حلما لذيذا ، يأنس به فى فترات متقطعة ، ولكنها لم تنسَ أنّ اسمها « رابعةُ » ، وإن لم تكن تدْعَى به ، كما لم تنس أن لها أخوات ، وإن لم تَعد تراهن ! ...

غير أنها نشأتْ فارعةً ظريفة ، حلوة الغناء ، طيبة الصوت ،

ولقد تأدبت ما وسعها التأدب. فاستقام لسانُها بالشعر تحاوله ، ثم قالته ، فإذا هي تُجيد منه شيئاً ، فاجتمع لها مالم يجتمع إلا للقليل من مثيلاتها ، فحباها أستاذها مزيداً من عنايته ، ورعاها الرعاية كلهـــا . . .

وتمضى الأعوام ، وإذا « رابعة » فى السابعةَ عشرةَ من عمرها ، أكمل ما تكون صنعة ، وأحسن ماتكون صوتا ، وأحلى ما تكون حديثا ، وأقوم ما تكون لسانا ، وأثقف ما تكون عقـــلا . . .

ويجلس إليها يومًا أستاذُها يستمع إليها ، وهى تغنى وتضرب ، ويجلس إليها مع أستاذها نفر قليلون من الناس ، رأت أمثالهم من قبل ، ولكنها لم ترفيهم عناية هؤلاء بأمرها ، وتطلُّعهم إليها قائمة قاعدة ، ضاربة مغنية ، صامتةَ قائلة ، فرابها من أمرهم ما رابهـا ! . . .

ولقد شهدت « رابعةُ » هذا البيتَ لايستقبل مثل هؤلاء الزائرين من قبل ، إلا على مساومة فى شراء جارية من الجوارى ، ولقد شهدت الأيامَ تمر بجديدات تدخلن عليها ، وقديمات يخرجن عنها ، فعلمت أنها مع غيرها — ممن يُحطن بهـا — ملكٌ لأستاذهن يُفـرِّقهن يمينا وشمالا للراغبين فيهن . . .

ولكن «رابعة» كانت قد أنست بأستاذها أنس البنت بأبيها. لم تكن ذاقت عطفَ الأبوة إلا أعواماً قليلة، فذاقته أعواما كثيرة، ولم تكن عرفت طعم النّعيم، فعرفته هنا ألوانا مختلفة، لهذا أحبت هذه الحياة، واطمأنت إليها، وباتت تحب أستاذَها حبا عميقا، حين أحبها أستاذُها هذا الحب وأغلى فيه. وكانت كلما مرت الأيام، فطوّحت بعيدا بغيرها، ولم تطوّح بها، ظنت أن أستاذَها حريص عليها، وأنه غيرُ مفرط فيها، ولكنها حينَ جلست إلى أستاذها هذه الليلة، ومعه هؤلاء النفر، علمت أنها كغيرها سواءٌ بسواء، وأن أستاذَها لم يكن يحبُّها هذا الحبَّ الأبوى، ولكنه يُعزها إعزاز المتاع النفيس المربح، يحوطها بعنايته كما يحوطه، فإن هو سُووم عليه بما يطمع، سمحت به نفسُه سخيةً طيّعةً...

لقد آمنت «رابعة» أنها عاشت مخدوعة فحزنت. وأنها فقدت فى ليلة ما عاشت عليه فى أعوام فجزعت، لقد حسبت أنها حُرة فإذا هى قينة. ولقد وطنت نفسها على أنها ابنة، فإذا هى غيرُ ما قدرت...

ولكن قلبها كان قد تفتّح لحب هـــذا الأستاذ فملأه، وما بمقدورها أن تنسى وإن نسى أستاذها. وما بمقدورها أن تتحول

عنه وإن شاء هو تحويلها عنه ، فبكتْ وأمعنتْ فى البكاء ، حتى أفسدتْ على الحاضرين مجلسهم ، ولم يعودوا ينتفعون بها فى مجلسهم بقليل أوكثير ، وخرجت عنهم وهى لا تملك ما تقول ! . . .

* * *

لقدكذَبتْ « رابعةَ » ظنونُها ؛ فلقد كان أستاذها يملك لها مثل ما تملك ، وكم سُووِم عليها فأبى ، وكم أغلى لها فى ثمنها فرأى المال لا يعوِّضه شيئا عن فراقها ؛ حتى نزل به « الربيع » ، تلك الليلة طامعا فيها ، راغبا فى شرائها ! . . .

وكم حاولها « الربيع » ، قبل هذه فلم يمكِّنه الأستاذ ، ولكن « الربيع » جاء هذه المرة يحمل وعدَه ووعيده ، ولقد يقوى الأستاذ على ردّ الوَعد ، ولكنه لا يقوَى على دفْع الوعيد ! . . .

ولكنه ما باله لا يحتال ؟ ! . . . ألم تبك « رابعةُ » ، بكاء يُلين القلوب ، ويَعطفُ الأفئدة ؟ . . . ألم يبك لبكائها الأستاذ ؟ . . . ثم ألم يبك لبكائها وبكاء الأستاذ « الربيع » ، ومن معه ؟ . . .

إذن لقد رق « الربيع » ، بعد قسوة ، وحنّ بعد غلظة . والقلب إذا رقّ وحنّ كان أقبل إلى الطواعية ، وأقربَ إلى العدل ! . . .

فانبرى الأستاذ إلى « الربيع » يستعطفُه ويغلى فى الاستعطاف ،

ويترفقه وهو يزيد فى الترفق ولكن هل كان « الربيع » فى كبرد إلا الربيع فى صباه لايرجع من عزمه، قاسيا على غيره عندما تشتهى نفسه .

لم يكن جديدا على « الربيع » أن تبكى عنده « جارية » لفراق سيدها فلم يأبه ، ولكنه كان جديدا على الأستاذ أن يفارق جارية أحبها ، ونزلت من قلبه منزلة البنت .

وتصطدم إرادة « الربيع » بإرادة الأستاذ ، وينتصر الربيع لأنه أقوى ، وينخذل الأستاذ لأنه أضعف ، ويفوز العسف لأنه كان سلاح هذا الزمن ، وينهزم الحق لأن الأستاذ لم يرعه حين أباح لنفسه أن يشتري ، فأولى بالناس ألا يرعوه معه حين يشترون .

وخرج « الربيع » برابعة ، وما نعلم أن الأستاذ انتفع بنفسه بعدهما فلقد ودع الحياة حزينا آسفا ، وإن كانت « رابعة » قد انتفعت بحياتها ، ومضت فيها تكتب سطورا كثيرة ! . . .

١٤

لقد عرفت ، رابعة ، الحب يوم أن أحبها أبوها . فافرط .
ويوم أن أحبتها أمها فأغنت ،ويوم أن أحبها أخواتها فزدن .

لقد ذاقت طعم الحب فعمر به قلبها ، وامتلأ به وجدانها
وانتعشت به نفسها ، وملأ عليها كل جوانحها ! ..

لقد طعمته لذيذا خالصا ، وأحست حلاوته ، وشعرت
بنشوته ،فأعطت منه كما أخذت . وحنت على كل من فى الوجود .
تعرفه حبيبا إليها ،كما هى حبيبة إليه ! ...

لقد اطمأنت إلى الحب صلة تجمع بينها وبين كل حى ، يلين بها
كل صعب ، وتجرى معها الأمور فى رفق . فودت لو فاضت به
القلوب ،كما يفيض به قلبها ! ...

لهذا طاع قلبها لحب هذا الأستاذ حين أحست أن قلبه طاع
لحبها ؛ لأنها كانت تؤمن أن الحب أول خيط بين الناس،وقد عاشت
موصولة به مع أخواتها فأنست بالسلم والطمأنينة، ومرت أيامها
معهن فى صفو وأمن ! ...

ولكنها حين خرجت عن أستاذها مخرجها ذلك ،

أنكرت على أستاذها أن يكون أحبَّها ، وكادت تنكر على نفسها أنها أحبته ؛ فالحب كالشعاع يكفى أن ينبعث من قلب ، إذ هو قد شاع فى القلب الآخَر .

غير أنها لم تكد تعلم بعد قليل أن أستاذَها قد غُلبَ على أمره ، وأنه لم يقو على فراقها بعد أن خرجت عنه ، وأنه قد ودّع الحياة حين ودعته ، حتى استيقنت أنها لم تكن غير محبة ، وأن أستاذها لم يكن غيرَ محب ، وحتى اطمأنّت إلى مالقّنَتْ عن الحياة فى تجربتها الأولى ، وأن القلبَ لا يَعلَقُ إلا بمن به يَعْلَق ، وأنك إذا أحببت فقد أمليتَ حبكَ على من تُحب ، لا يستطيع أن يردَّه ، ولا أن يَنْشغلَ قلبُه دونَه ؛ فالحب لون من ألوان الخير ، والقلوبُ أسرعُ للخير وأجمعُ عليه !...

* * *

ودخلت « رابعةُ » بيتها الجديد بقلب حزين حين ظنت أولاً أنها منكوبة فى حبها ، ثم استحال حُزنُها اطمئنانا حين أخطأها الظن ، ثم استحال اطمئنانها هامًّا حين علمت أنها فقدت من بادلها حبا بحب ، ثم استحال هلعُها وجْدا على « الربيع » حين قرَّ فى نفسها أنه آذاها وكان فى ملكه ألا يفعل ، ثم استحال وَجْدها نِقمةً حين أحسَّت أن « الربيع » لا يعيش

بقلب المحبين ، وإنما بقلب اللاهين ، ثم استحالت نقمتها عليه نفوراً منه ، حين رأته يريدُها متاعا لحياته ! ...

* * *

لمثل هذه الحياة غير المتحرجة كانت ستُعَدُّ « رابعة » ، حين اختُطِفَتْ ، وحين ضمها بيت أستاذها ، لولا أن أستاذها حمل لها شيئا لم يحملْه لغيرها من الجوارى ، ولقد كان زوجاً فقد زوجَه ، وكان أباً فقد بنته ، وقد دخلتْ عليه « رابعة » صغيرة فملأت عليه فراغ البنت ، ولم تملأ عليه فراغ الزَّوْج ، ولكنه لم يلقها حين لَقِيَها أولا بشعور الأبوّة كلِّه ، وإلا لسلك بها مسلكا آخر ، ولكنه لقيها ببعضه فكان يغذُوها بفنِّه ، ويغذو حبُّها قلبه ، حتى إذا ما استوَتْ ونشأتْ . وكانت قد أخذتْ عنه الفن كلَّه ، وأخذ هو عنها الحب كلَّه ؛ — كان ما كان من فراق ! ...

لهذا صينتْ « رابعة » فى بيت أستاذها مما قد لا تصان عنه صواحبها ، ولهذا ! ... أسلمت « رابعة » قيادها للأستاذ واطمأنتْ إليه ، وشكرتْ لربها ما انتهت إليه ! ...

* * *

لقد استمعت لأبيها صغيرة يذكرُ ربه بعدله وإحسانه مع فقْره وحرمانه ، واستمعتْ له يشكره على البأساء وماذاق النَّعماء

إلا قليلا ، واستمعت إليه لايكاد يفتر لسانه عن تمجيده ربه ، واستمعت إليه يناجيه كما يناجي الحبيبُ حبيبه ، ولكنها رأت أباها ولم تَرَ ربها ، وأحست بَلاء أبيها في العبادة ، ولكنها لم تحسَّ جزاء ربها له ؛ لأنها كانت أصغرَ من أن تُدرك ، حتى إذا ما هي انتهت إلى هذه النِّعمة في ظل أستاذها رأت أن هذا هو الجزاء ، ولكنه تأخر عن أبيها لينالها ، واطمأنت نفسها إلى عدل الله وإحسانه ، وأخذت تقرن حُبا بحب ، وإخلاصا بإخلاص ، لقد آمَنَتْ أن الحب لايضيعُ بين العبد والعبد ، وأنه نور إذا انبعث من قلب الأول استقر فى قلب الآخر ، وكان لهذا جزاؤُه ؛ فما لها لا تؤمن بأن حبَّ العبد ربَّه مِنْ حبِّ ربه له ؛ ولهذا جزاؤُه ؟ ! ...

ألم تحب هي أخواتِها فأحبَبْنَها وعشن لها ؟... ألم تحب أستاذها فأحبها ومات من أجلها ؟... ألم يحبَّ أبوها ربَّه فأكرمَها بحبه له ؟ ...

لقد شَغَلَ الحب قلب « رابعة » شغلا مختلفا ، لقد وُلدتْ عليه وشبَّت به . تجد فيه راحة نفسها ، واطمئنانَ قلبها وأمْنَ فؤادها ! ...

لقد جر بته مع أبيها عطفاً ، وبادلته أمها حنانا ، وهنئت به مع أخواتها وُدًّا وطعِمَتْه مع أستاذِها أُنسا ، وتلقَّتْه من ربها إحسانا وإنعاما ..

وهكذا يختلفُ الحب على « رابعة » لكنه كان فى كل لونٍ

من ألوانه طيِّبا رائقا جاذبا ، غير أنّها رأته مع الله أقوى على أن يداخله الرِّيب ، وأنى من الأطماع ، ثم هو وصل حبل ضعيف بقوى ، وكلما ضعُف الحبيب إلى حبيبه رقّ حبُّه ، وصفا وده ، وانتهى به ذلك الضعف إلى نوع من الاندماج هو غاية المتحابين . وأسمى ما يكلّلان به حبهما ، وأنت لا تضعف بين يدى المحب إلا إذا قدرته ولا تقدره إلا إذا عزك ، ولا يعزك إلا إذا ملكك . وهل غير الله يملك عبادَه ؟ ! ...

* * *

بهذا القلب الذى بدا يفيض بحبٍّ الله بعد ما فاض بحب الناس ، دخلتْ « رابعة » على « الربيع » ، وبقلب الفتى المتقلب ، الذى يهيجه الجمال ، ويفتنه الترف ، استقبل « الربيع » « رابعة » ، ولقد كان قلبُ « الربيع » ضعيفا كما كان قلب « رابعة » ضعيفا ، ولكنَّ ضعفَ « الربيع » متحول ، وضعف « رابعَة » غــيرُ متحول ، فجمال « رابعة » متحول ، وجمالُ الله غير متحول ، وان يقيم « الربيع » على حب « رابعة » إلا إذا بقى لها جمالُها ، وما أسرعَ ما يتحوّل ! ... و « رابعة » مقيمة على حب ربها وجمال الله باق لا يزُول ، و « الربيع » طامع فى جمال « رابعة » و « رابعة » طامعة فى حب ربها . و « الربيع » يجهل قلب « رابعة » و « رابعة » تعلم قلب

« الربيع » . والربيع يملك الجاه والسلطان والإغراء ، و « رابعة »
أَمَة ضعيفة لا تمتنع على سلطان « الربيع » ولا تقوى على إغرائه .

ولقد استقرت « رابعة » حين دخلت على « الربيع » في
رُكن عزيز كما تستقرُّ كل قادمة في مثل شأنها ، وأُحيطت
بشيء من الإجلال والإكبار كما أُحيط غيرُها من قبل من
الوافدات إلى هذا القصر ! ...

* * *

ووكل « الربيع » بـ « رابعة » قينةً خلع عنها الدهر جمالَها إلا قليلاً
منه ، إلا أنها كانت على دهاء ومكر ... وكان « الربيع » يركنُ
إليها في الكثير ، تسارُّه إن أعوزه السرّ ، وتؤنسه بحديثها مع
ساعات هَمِّه . وما أراد بها حين وكلها بـ « رابعة » إلا أن يُرضِيَ
« رابعة » عنه كل الرضى ، ويجعلها على بيِّنة من إعزازه لها ! ...

وقد فعل لـ « رابعة » غيرَ هذا من ألوان الإعزاز مما كادت
« رابعة » تضيق به ، وينِدى له جبينها حَيَاءً وخجلا ... وقد
يكون مثل هذا مع غيرها ، مما تكبرُ به المرأة على زميلاتها وتَتِيه ،
ولكن « رابعة » عدته لونا شائنا خزيت به بين صَوَاحبها اللاتي
أخذن يلتفتن إليها بنظرات تُثير القلقَ والهم في نفسها ، فكانت
تأبى أكثر مما يُبذل لها وتقبل أقلَّه ، وكانت تخفض نفسها إلى حظِّ
الجواري غيرها ، حين كان « الربيع » يريدُ أن يرفعها عنه ! ...

١٥

لقد كان قصر « الربيع » من تلك القصور التى امتلأ طولها بألوان الترف، واتسع عرضها لمباهج الحياة ... لقد كان من الأثرياء، كما كان من الأمراء، ولقد كان يجتمع للهو قبل أن يكون له هذا القصر فى فضاء « الأُبلَّة » ، ثم اجتمع له اللهو فى فضاء هذا القصر حين كان له وكان أميراً . ولقد كانت القصور تضمّ على مثل ما انضم عليه قصرُ « الربيع » على تفاوُت ما بين تلك القصور . ولكن قصرَ « الربيع » الأمير كان أغناها جميعاً ترفاً وبهجـــة ! ...

ولقد كان عندها فتى يمضى إلى الأربعين ، بينه وبينها سنوات أربع ، ولكنه كان أتمّ ما يكون عافية ، وأكمل ما يكون قوة ، وأوسمَ ما يكون طلعةً ، وأمدّ ما يكون قامَة ، وأشرق ما يكون جبيناً ، وأحـــلى ما يكون لساناً ، وأمتع ما يكون حديثاً ... تتشوّف إليه العيون ، وتهفُو له القلوب وتميل نحوه الأسماع ! ...

كتبت له الأيام صفحات عامرة بالغرام لا صفحة ؛ فلقد كان

سريعَ الإقدام سريعَ الرجوع ، يلذ له من الهوى ما كان جديداً، ويَبرَم بقديمه ، لم تملك قياده فتاة أحبته ، ولكنه ملك قيادَ كل فتاة أحبها ! ...

لقد عدَّه الناس مَاجناً ، وعد نفسه هو واسعَ القلب ، على حين تضيق قلوب الناس ، وبهذا فسر نفسه بنفسه ، وفسر تقلُّبه فى الهوى ؛ وبهذا فسر خروجه عن الهوى المشروع إلى الهوى غير المشروع ، وبهذا فسر جمعه بين هَوىً وهَوىً فى آن واحد ...

ولقد ردَّه الآباءُ زوجاً، على حين رضيته البناتُ قريناً، وفرقٌ بين نظرة يديرها العقل ونظرة يُحركها القلب ، ولهذا عاش « الربيع » عمرا ليس لبيته ربة ، حتى إذا انضمت إليه الإمرة ظن الآباءُ به خيراً ، وظن هو بنفسه أمراً ، وشُغلَ هذا القلب بمشاغل الحكم أكثرَ مما كان يُشغل بمشاغلِ الهوى ، ويسعى إلى الزواج كما سعى إليه الزواج .

وأوت معه فى هذا القصر زوجٌ خطبها له أولو شأنه ، فحمد لهم رأيهم ، وحمدوا له قبوله ، ولقد سكن إليها « الربيع » سعيداً بها : لأنها كانت جديدةً على حياته ... ولقد ردته الإمرة إلى جِد متصل مرهق لا يفيق منه إلا على خلوَات متقطعة ، يفرِّغ فيها لزوجه ... كانت فيها جِدَّة له . فلم يَضق بها ولم يبرَم ! ...

ولكن الإمرة التى عنته أولا حين ضمته إليها ، هانت عليه ثانياً حين ضمها هو إليه ، وبعد أن كان لها أصبحت هى له ... عندها عاد يحس سعة قلبه ، وعاوده الظمأ القديم ، فملأ عليه قصره بالجوارى ، وأعانته الإمرة على أكثر مما كان يعينه الثراء ! ...

وكان حق الأمير أن يشترىَ من الجوارى ما يشاء ،وكان من حق الأمير أن يخلوَ إلى مجالس الغناء ، وعلى الزوجة أن ترى هذا حقاً من حقوق القصور ، ولاتزال تراه وإن اختلفت الصورة وتغير اللون ! ...

ولكن هذه الزوجة لم تعش فى هذا القصر بجسمها ، ولكنها عاشت فيه أيضاً بقلبها ، وهى لم تومن بلغة القُصور عن رضى بها ، ولكنها استسلمت لها مغلوبة على أمرها ، وما نظنها اطمأنت «للربيع» فى خلواته دونها ، ولكنها لم تملك أن تصده عنها ، وما نظنها هدأت لها نفس، فقد خرج « الربيع» عن هدوئه الذى بدأ به ... وكم جاهدت أن تعيش أميرة فتقنع ، ولكنها عاشت زوجة فلم تقنع ! ...

ولقد عزّ عليها الأنس فى هذا القصر. على حين ظفر «الربيع» فيه بكل شىء ، لقد كان لها فيه جاه الدُّمية المقصورة فى مكان ،وكان له جاه الحىّ المتنقل فى كل مكان، ولقد كان وقتها فارغاً مسئماً، على حين كان وقت « الربيع » عامراً مبهجاً ... ولقد كان « الربيع » مباحاً له

كل شيء ، وإن ألم بعضه على خشية ، ولم تكن هى مباحاً لها شئ ، إلا أن تضم إليها جَوَارِىَ مختارات ، فضمت إليها منهن ما أحبت ، واصطفت من بين من أحبت جارية كانت لها عيناً فى القصر ، تغدو إليها وتروح بكل ما تسمع وترى ! …

لقد ضَنيت « فارعة » زوج الأمير بما يُنقل إليها ولكنها كانت تتلهف إليه ، ولا تحب أن يفوتها شيء ، وقدرأت بعقل المرأة الحكيمة أن تَرد زوجها إلى ما استعصى على الزمن أن يرده إليه ، وعلى هذا الرأى عزمت . فهان عليها ما تسمع ورأته عُدتها إلى ما تسعى ! …

وكان « الربيع » أبيًّا نفوراً ، وكانت هى طيعة ذلولا ، وكان « الربيع » لم ينفض يده من هواها ، بل كان يُغرَى بها على الرغم من مضىّ العهد ، وكان له منهـــا ابنان يحبهما ، ويحب أمهما من أجلهما ، ولكنه كان يحب — أكثر من هـذا وذاك — تلك الساعات التى يخلو فيها لنفسه ، ثم تلكَ الجارية الجديدة التى دَخلت عَليه القصر ، فملكت عليه لُبه ، واستأثرت بهو ا …

١٦

لقد اختلفت البيئة على « رابعة » فهى ، من قبل أن تدخل فى فى حياة « الربيع » كانت فى ظل أستاذ سقاها من الحيـــاة بلونـَيـْن ، فنالت حظا من دنيا المترفين ولم تـُمعن ، وألمّت بسبيل الصالحين ولم تـُغرق . فلقد ضربت وغنّت ، وكانت على أن يدفعها أستاذها لتلك الحياة دفعًا ، لولا أن أدركتها عنايته فأبقـــاها بين يديه ، يأخذها بشىء من صلاح كان الرجل لا يخلُو منه ! . . .

وكانت — من قبل أن تصير إلى أستاذها — فى كنف والد ، من بعده أم ، من ورائها أخَـوات ، ولقد ظفرت فى هاتين البيئتين بالحب كاملاً ، ولكنه كان حبًّا واحدا ، وإن اختلف أسلوبُه . . . حبًّا عاشت عليه روُحُ « رابعة » ، لم يخاطب منها جسماً ، ولم يُـثـِرْ فيها غريزة ، حبًّا لم يشعرها بأنوثتها ، وإنما أشعرها بإنسانيتها ، لم تكن تفرق فيـه بين كلمات الأب وكلمات الأم ، ولا بين كلمات أخواتها وكلمات أستاذها ، كانت كلّها شيئاً واحداً فى معناه وإن تباين مَبْـناه ، يحمل

الحنان ، ويفيض بالرفق ، وينطبع بالأمن ، ويتميز بالسلامة لم تسمع فيه كلمة إطراء ، ولا عبارة ثناء ، لم يُثْنِ فيه على جمالها ، ولم يُتحدث فيه عن حسنها... لم تكن تعرف فيه ، ماطولها وما عرضها ، ولا ما رزقها الله من شَعَر فاحم ، وخدٍّ أسيل ، وجبين وضّاء ، وعينين نجلاوين !... كانت تحيا فيه بالكلمة المؤنسة لا بالكلمة المعجبة ... كانت تتلقاه ودّا تُشارك فيه ، لا إعجاباً تدلّ به وتَتيه !...

وهكذا لم تكد تعرف « رابعة » « الربيع » حتى عرفت حبّا جديداً ، أنكرته أولاً ؛ لأنها لا عهد لها به ، وحنّت إليه ثانياً ؛ لأنه لمس منها جسماً امتلأ قوة ونشاطاً ، كانت عن حاجاته غافلة !...

وما استجابت رابعة ، مختارة مسرعة فى الاختيار ، ولكنها مغلوبة مُغراة على الاستسلام ... لقد كان كل ما يحيط برابعة ، يدفعها إلى حياتها الثانية دَفعاً ، فلقد سُلِّطت عليها عجوز أو شبهُ عجوز ، ملأت نفسها حبّا للحياة ، وقلبها بهجة بالدنيا ، وسُلِّط عليها « الربيعُ » فى رجولته الكاملة ، وعزه الباهر ، وأسلوبه الساحر ، فأطراها ما وسعه الإطراء ، وولّهها ما أ..حفه التوله ، وملأها عجباً بنفسها ، ودَلالاً بجسمها !...

فالتفتت « رابعة » إلى وجهها تجلوه ، وإلى شعرها تصففه ، وإلى هندامها تُنَمّقه ، وبذل لها « الربيع » الحلى ، والجواهر فحملت منه ما تقوى عليه وما لا تقوى ، وبذل لها « الربيع » المال تنفق منه عن سَعة فيما يطيب لها ، وهيأ « الربيع » لها مجالس اللهو تصرفها عن مجالس الجد . . وأغرى بها « الربيع » جواريه ينافسْنَها عليه ، فتحركت فى قلبها الغيرة عليه والغَيرةُ منهن . . .

وبدأ يخرج من قلب « رابعة » حب ، ويحل محـله حبٌّ آخر . و « الربيع » جاهد بأعوانه فى أن يُفرغ قلبها ممـا كان ويملأه بما أراد ! . . .

ولقـد كان قلب « رابعة » قلباً يهزُّه الحب ويستجيب له مدفوعاً بطبع يثيره إليه ، ويربطه به إن حاول فكاكاً منه ، ولقد ذاقه من قبل لوناً فأنس به وفرَغ له ، وها هو ذا يذوقه لوناً آخر فلم يجـد مُنصَرفاً عنه ! . . .

ولقـد اطمأن « الربيع » إلى أن هذا القلب الذى تأبَّى عليه مال إليه ، والذى بدا يَرُدُّه هواه غدا يهواه ، فأقبل يتألفُه غيرَ مفحش ، ويثيرُه غيرَ مشين ، يغـذيه بإسراف من التولُّه ، ويوقظه بمزيد من التعطُّف ، لا يمس صاحبتَه إلا بكف بريئة ، ولا يرمقها إلا بعين الإعجاب ! . . .

ولم تجد « رابعة » حرجا مع هواها الجديد ، بل أحسّت فيه لونا آخر كان فيه طعمُ آخر : ردّها فتاة معجبة بنفسها ، تيّاهة على غيرها ، مُعتنية بأمرها ! . . .

وقد رسم « الربيع » غايتَه ، وكانت هي في شك من غايتها : ترى ماضيه مع تلك الجوارى التى كان له معهن ماض ، فتنفر نفسُها ، وتكادُ تطرَحه ، وتحس هُيَامه وعفة نفسه ، فترتد إليه ؛ وتراه زوجا . يكاد يؤذى زوجه بها ؛ فتتألم ، وتحب لنفسها ألا تتخول أمامها ؛ فتغار ؛ وتنظره أباً لصغيرين يشرَكانها فى حبه ، وهما بها غير راضيين ، فتعف ، ثم تُغرَى بأن يكون لها منه مثلهما فتطمع ! . . .

لقد اضطرب قلبُ « رابعة » بين حب وحب ، حب أول تذوّقته لا يعنيِّها ، عذب مرىء ، وحبٌ ثان معه الدنيا بمتاعها وأطاعها ، حبٌ خالص للنفس ، وحب يعيش فيه الجسم مع النفس ، ولكن حُبَّها الأولَ كان يفقد فى تلك البيئة ما يُلهيه ، وحبها الثانى كان كل ما فى البيئة يُلهبه ! . . .

ولكن « الربيع » لايدعها للفكر طويلاً ، فيخرج بها إلى نزهة فى « دجلة » ، ليس معهما غير حاشية وأتباع ، والوقت أصيل ، والجو صحو . والسماء صافية ، والهواء عليل . وقد جلست إليه

تـَغـَنـِّيه وهو إليها مصيخ ، ويسمع لهافى وَله المحب بحبيبه ، ويتعلق بأهدابها يبُثها لوْعَته ، وتكاد تنْضَم يداه على خصرها فلا ترده ، ويحاول أن يضمها إليه ، فتدفعه دفعاً رقيقا ، ويعتدل لها يحدثها ، وهى تسمع وتجيب ! ...

لقد فاض « بالربيع » ، فأخذ يحدثها حديثَ الحب ويفتَنّ ، ويطيب هذا الحديث فى نفس « رابعة » ، فيُشرق له وجهُها رضىً به ولا تنطق ، ويحس « الربيع » ظمأ الحب إلى أن يمس بيده يدها ، تنقل دفء ما يجد من حرارة قلبه ، لتُحس بها وتجد ما يَجد ، فتترك يدَها فى يده طويلاً و « الربيعُ » ظامىء إلى غيرها ، ولكنـّه غيرُ آمن استجابَتـَها ، فما له لا يمهِّد لها بحديثه الحلو المُغْرى وهو يملكه ؟ ! ... يملكه صادقاً وسوف يصيب به مقنعاً ، وما شك فى أنها والهةٌ وَلـَهه ، ولكنها لا تفهم الوَله فهمه ، فالتفت إليها ويدُها فى يده يقول :

أتـُنكرين على الزهرة النضرة — وقد استهوتْ الناظر — أن يقبل عليها يتشممها مرة ، ويقبّلها أخرى ؟ ... وهل ترين إن هو قنع بالتطلع إليها دون أن يفعل قد دل على عميق ما يجد وبالغ ما يُحس ، وهل ترين الزهرة — إن قدر لها لسان ناطق — راضيةً بأن يمر بها المـعجَـبون ، لا ينالها منهم إلا تلك النظرات الخاطفة ، التى إن

كشفت عن جمالها لا تكشف عما تحمل من أريج حلو ، وتدخر من مذاق شهى ؟ ! ...

ألا ما أشقى الرجل حين يقصر ، ثم ما أشقى الزهرة حين لا تبيح ، ثم ما أبعد ما بينهما حين يقنعان بتلك الصلة المجردة ، التى لا تغنى بها الروح ، ولا تشبع معها النفس !... وإن الصلة التى تقوم على أسباب أبقى من التى تقوم على سبب واحد، فما بالك إذا كان هذا السبب لا يؤلف بين النفوس، ولا يجمع بين الأرواح؟!...

وتكاد « رابعة » تؤمن بما يقول « الربيع » ، ولكنها لا تؤمن بما يرمى إليه ، فيفيض وجهها بحمرة الخجل ، ويندى له جبينها ، وتضطرب يدها فى يده ، وكأنها تحاول أن تخلص بها ، ولكنها لا تقوى، فقد جمدت عليها يد « الربيع » ، ولكنها لم تغلب على أن تقول :

ولكنك لم تستمع إلى تلك الزهرة ، بعد أن ذوى عودها فى يد قاطفها ، وبعد أن تراخت ورقاتها بمس لامسها ، وبعد أن فتر أريجها فى شمه ، وخبت جذوتها تحت لثمه ، وبعد أن عاد هذا المعجب — وقد رده الشبع — إلى اطمئنان ، وانثنى به الاطمئنان إلى الدعة والهدوء ... لو قدر لتلك الزهرة أن تدفع عنها يد المعجبين لبقيت تملك إعجابهم ، ولظل حبل الشوق

موصولاً بينها وبينهم ، وهل الحب إلا هذا الشوق ؟... وكما يبعثُ الشوق الحب ، كذلك يبعث الحبُّ الشوقَ ، هو الوسيلة والغاية والبذرة والثمرة ؛ يَقرُبُ الحبيب ، ولكن الشوقَ فيه يُبعده حتى لا يحتويه الحس فيُمَل ، ويَبعد الحبيب، ولكن الشوق إليه يقرِّبه حتى لا يحتويه الغيب فينسى ، ولن يُكتب لهذا الشوق الدوامُ والبقاء إلا إذا امتنعَ الحب عن أن يدخل في حيز المدْرَكات وإذا اطمأنت النفوس إلى أنه ما يدرك.. اطمأنَّت إلى أنها بالغة من هذا الذى يدرك غايتها ، ثم هي خالعة عنها أثقالها ، قارّة بعد أن كانت لهجة ، وادعة بعد أن كانت لعجة ! ...

ويحمى « الربيع » للنضال فيُطلق يد « رابعة » في يسر ، وما ضمها إليه إلا بعد جهد ، فما أحوَجَه إلى أن يرفع يدَه في الهواء ، ويخفضها ، يدلل بهاويصور ! ... ولسانه يقول :

ولكنك لم تستمعي إلى تلك الزهرة بعد أن مرت عليها الأيام ، فطوت حسنها فيما تطوى ، ومحت نضرتها فيما تمحو ، وذهبت بعبيرها فيما تذهب ، تتحرق إلى من يقف إليها فلا تجد ، وتتلهف إلى من يُلم بساحتها فلا تظفر ! ...

مُدِّى إليها حبل الشوق فلن تجديه ، واذكرى لها شيئاً نعمت به في ظلها يربطك بها ، فلن تلفيه !...

ألم يكن خيراً لها أن تمتلىء بأريجها الآناف ، ويجرى مذاقها على أطراف الشفاه ، وتُداعب ورقاتها رقاق الأنامل ، قبل أن تبعثر عليها الريحُ عَرفَها ، وتحرق الشمسُ فيها ريقَها ، وتقسو العواصف بورقَاتها ؟ ! . . .

هى فى الأولى باقية فى شم المُعْجب ، ، وعلى لسانه ، وفى أنامله ؛ موصولة بهذه الأسباب كلها . باقية فى نفسه وإن زالت ، وهى فى الثانية قد تخطَّفتها الريح والشمس والعواصف ، فانظرى هل تجدينَ لها أثراً فى هبوب الريح ، أو فى مطلع الشمس ، وحين تعصف العواصف ؟ ! . . .

آمنى أن الحب ليس للنفس خالصا ، ولا للحِسّ خالصا ؛ بل تشارك فيه النفسُ الحس ، تأخذ النفس منه بنصيب ، فتفيض به على الحس ، ويأخذ الحس منه بنصيب ، فيفيض به على النفس ... الحب تعرفه النفسُ ويعرفه الحِس ، فيجتمع الاثنان على معرفته ، إن نسيته النفس ذكّرها به الحس ، وإن نسيه الحس ذكرته به النفس ! . . .

يقول هذا « الربيعُ » فى حماس ، ويداه مطلقتان تندفعان مرة ، وتفيضان أخرى . . . و « رابعة » مصيخة ترنو إليه بعينين شاخصتين ، وما يكاد يستقرُّ لسانه حتى تستديرَ يداه و « رابعة » يريد

أن يضم جسما إلى جسم ، بعد أن ظن أنه ضَمَّ رأيا إلى رأى . . .
وما أوشك حتى انصرف فزعًا على صوت يصيح صيحات متصـــلة ! . . .

وتلتفت « رابعة » إلى حيث التفت « الربيع » فإذا الأعين تقع على شيخ عجوز قد وقف على الشاطىء ، وهو يمسك بعُكازته ، يلوِّح بها حين ظن أن يده لا تغنى ،وهو يصيح :

إلىَّ أيها الملاح ! . . .

ويحس الملاحون فى صوت الشيخ لهفة ، فيسرع شيخهم إلى مكان « الربيع » من « رابعة » يستأمره ، وتحس « رابعة » مثلها فتنظر إلى « الربيع » مسترحمـــة ، ويحس « الربيع » مثل ما أحسوا جميعا فيسبق المستأمر والمسترحم إلى سُكان المركب يو جِّهه ! . .

ولقد نسى « الربيع » أن هذا الشيخَ قد أفسَد عليه تدبيراً طويلاً ، وفوَّت عليه حجة كاد يبلغ بها ، ولكنه كان واجبا تُنسى الواجباتُ دونَه ، فلقد أيقظ نداءُ الشيخ فى نفس «الربيع» ذكرَى أبٍ ابتلعه أليمّ ، حين فقد المجيبَ ، لذلك فزع إليه ، ثم هو قد أحس شيئا لم يكد يفاتح بهِمَن حوله بعدُ ، حتى وجدهم على مثل إحساسه : لقد صُبَّ نداء الشيخ فى أذنه أمراً أو شيئا

كالأمر ، وكذلك صَب فى آذان من حوله ! ...

فإذا هو وإذا هم جميعاً معه يتجهون بالمركب نحو الشيخ ، وبودهم لو قطعوا ما بينهم وبينه أعجلَ مما قد عجلوا .

وصُرف فكر «الربيع» عن «رابعة»، وصُرف فكر «رابعة» عن «الربيع» ، وشُغل فكر «الربيع» بهذا الشيخ ، وكذلك شغل فكر «رابعة» ، واتجهت العيون كلها إليه متعلقة به ، وخفتتِ الأصوات فلا تسمع إلا للطم المجاديف وجه الماء ! ...

ويحاذى المركب الشاطىء حيث استقـــام الشيخُ ، ويلتفت «الربيع» هنا وهناك فى الماء وعلى الأرض ، وتلتفت «رابعة» كما يلتفت الصحب ، علّهم يجدون شيئاً مما قد قدروا ، فلا يجدون شيئاً .

ويكاد يثور «الربيع» ، ولكنه يملك أمره قليلاً ، وينادى الشيخ بصوت فيه رنّة الغضب وجَرْسُ الحلم يسأله عما به ! ...

ويسرع الشيخ نحو المركب دون أن يجيب ، تحمله رجلان لا تطاوعانه فيما همّ به من خفة ، ويستحيل غضب «الربيع» على الشيخ شفقة به ، فيقفز إلى البر يساند الشيخَ ، حتى يصل به إلى المركب ، وقد جد لسانه فى فيه ، ولم يملك غير أن يفعلَ ما فعل ، يرى نفسه مَسوقاً ويراه غيره مختاراً ! ...

١٧

هذا شيخٌ من المتصوفة لم تره « البصرة » قبل اليوم ، ولكنها امتلأ سمعُها به . قطع فى التصوف عمره ؛ ألف سُكنى البوادى، وهجر سكنى المدن ... يعرفه الكثيرون باسمه ، ويتناقلون له الطرف والنّوادر ! ...

ولقد قصد إلى « البصرة » يسعى إليها ماشيا يساير نهرَ « دجْلة » حين قصد إليها ، ولقد أمضى الأيام يضرب فى الأرض يمشى ما وسعه المشى ، ويحط رحله حيث يُريح ... وفيما هو يسير . أبصر مركبَ الأمير يجرى نحوَ « البصرة » ، فعنَّ له أن يستعين براكبيه ليحملوه ، فيما بقى بينه وبين البصرة من فَراسخَ قليلة ! ...

هذا ظاهرُ أمره الذى بدا . ولكن دخوله على حياة « رابعة » . فى تلك اللحظة الفاصلة كان شيئا مما حُسب له من طرَفه ونوادره ، وروَوْه الناس له ! ...

ولقد صمت « الربيع » هنيهة لا يكلم الشيخ ولا يسألُه ، بعد أن أخذ مكانه فى المركب ، بينه وبين « رابعة » . وظل يطيل النظر

إلى سمته المهيب ، ووجهه المُشرق ، ولحيته البيضاء المرسلة ، التى تغطى جانبا من صدره العارى ، وإلى حاجبيه الغليظين ، اللذين يستران عينين ذابلتين ، لكنهما يشعّان ببريق هادىء تلين أمامه النظرات ، وتسكن له النفوس ، ثم إلى سُبحته الطويلة التى يداعب حباتها الغليظة بأناملِه الرقيقة ؛ كما أخذ يسمع إلى همسه اللطيف الذى تتحرك به شفتاه الرقيقتان ، ولسانه بينهما يغدُو ويَروح ، ولكنه لا يُبين ! ...

وهكذا استحال كل ما فى المركب إلى صمت ، حين وضع هذا الشيخُ فيه قدمه ... وهكذا شُغل « الربيع » بالشيخ ، ونسى « رابعة » حين ضمَّ هذا الشيخ إليه ، ولكنها نزهة هيَّأها « الربيع » لغرض فى نفسه . وما يجب أن يفوته هـــذا الغرضُ ، ولقد أنس فيها بحديث . أثاره ، كاد يصل به إلى مقنع ، لولا أنْ قطعه عليه هـذا الشيخ ! ..

ولهذا أخذ الربيع ، يسـائل نفسه قبل أن يسأل الشيخ : كيف استمع إلى ندائه ولم يغفله ، وكيف صغر أمامه فرضى صحبته ، وكان بوسعه أن يتركه حيث رآه ! وكيف جلس إليه وقد عقدت الهيبةُ لسانه ، لايقوى أن يأخذ معه ويُعطى ! ...

ذكر هذا كله « الربيع » فكبر فى نفسه شيئاً ، وغضب لما فاته

لحمى شيئاً ما ، ثم دخل عليه تابع من أتباعه يناديه بالإمرة ، فامتلأ عطفاه كبراً ، وتطاول بعنقه يرى ما الشيخ فاعل بعد ما سمع، فلم يره أبه لذلك قليلاً ولا كثيراً ، فانكمش « الربيع » كما كان . وفترت فيه حميّته وبقى على صمته ، وكأنه لم يفكر أن يخرج عنه منذ حين قليل ! ...

ويمد الشيخ بصرَه إلى ركن استوتْ فيه مائدة قد اجتمع عليها شرابان هذا حلال وهذا حرام ، ثم يثنى ببصره إلى « الربيع » عابساً مرة . فيخزى لها « الربيع » فيطرق ، وإلى « رابعة » هاشا مرة ، فتتطاوَل برأسها ! ! ...

ثم يلتفت الشيخ إليهما التفاته من يريد أن يقــول شيئا . فيُصيخ إليه « الربيع » ؛ كما تُصيخ إليه « رابعة » إصاخة الظامىء إلى سماع شىء ، وينطلق لسان الشيخ لا ليشكرَ « للربيع » أنه حمله وبرَّه ، ولا ليعطيه حقَّه فى ذلك مضاعفا ، بعد ما علم أنه الأمير على « البصرة » ، ولكن ليَنْعى عليه هذه الخرجة اللاهية التى لا تزال أسبابُها بين يديه شاهدة عليه .

وحرك كلامُ الشيخ « الربيع » للكلام فتكلم ، وكان « الربيع » لبقا فلم يُدِر الحديث فيما أخذه عليه الشيخ ، فيزيده عُنفا به ، ويزيدُ نفسه حرَجا منه ، ولكنه بدأ يحاوره فى غيرها ! ...

فقال له :

ولكن الشيخ لم يخبرنا عن اسمه .

ويقول الشيخ : هلا غنّى الأمير بفعلى ؟

ويقول الربيع :

ومتى غنّىَ الناسُ بأفعال الناسِ منذُ وجدوا ؟! ...

ويقول « الشيخ » :

وهل يأخذ الناسُ عن الناس إلا أفعالهم مذكانوا ؟!...

ويقول « الربيع » :

ولكنهم يأخذونها مقرونة بأسماءِ أصحابها ! ...

ويقول الشيخ :

لوخُيِّرَ ، صاحبُ الفعل مارضى ! ...

ويقول « الربيع » :

تلك دنيا كم معشرَ الزاهدين ! ...

ويقول الشيخ :

ولاتحبُّها أن تكونَ دنيا الناس جميعا !؟ ...

ويقول « الربيع » :

إنما يُغرِى الناسَ بالعمل أن يكون لهم اسم مخلد ! ...

ويقول الشيخ :

ما عمل من عمل لاسمه ، وما أفسد عليكم حياتكم ـ أيها الناس ـ وجعل بعضكم حرباً على بعض، إلا حين تنازعتم على هذا الخلود الباطل ، تتقهرون عليه منافسيكم ،وتظلمون فيه شركاء كم، ومايضيركم أن تكسبوه من غير حله ، أو تخلعوه عن أهله ... لقدغرتكم الحياةعن أن تعملوا حين خيلت لكم أنكم تعملون!...

وترتاح « رابعة » لكلام الشيخ ، ويبدو هذا فى وجهها ، كما يبدو فى إقبالها عليه ، و فى حركة رأسها ، وهى تهزه هزا خفيفاً تنعم له به ،حين لم تملك أن تقول : « نعم » بلسانها ؛ خشية أن تخزى « الربيع » فى موقفه الذى شمر له ، وما تحب أن يكون مغلوباً ، وتنظر إلى « الربيع » ، فتجد الوجوم على وجهه ، فتفز قليلا وتضبط نفسها ، وينظر الربيع،منها هذا فيتهيأ للشيخ ؛ ليرضيها عن نفسه ، ويرضى نفسه ، ويقبل عليه يقول :

خذ الناس بما خلقوا عليه ولا تكلفهم غيره ، فتصرفهم عن حكمة الوجود ، وتردهم إلى التقاعد والتخاذل ، فما دب إنسان على الأرض إلى ليحمى وجوده ، وما مد يده إلى عمل إلا ليكسب لنفسه ، وما جد جده إلا ليكون أول الفائزين ... لقد عرف الإنسان نفسه ، قبل أن يعرف الوجود ... ولقد عرف أن الوجود له قبل أن يعرف أنه للوجود ، فهو يأكل الوجود قبل

أن يأكله الوجود ... وما الوجود براحمه إن عفت ، ولا بناقم عليه إن أسرف ؛ فهو طعمته أبطأ بها الزمن أو تأخر ، وهل تضار الشاة إلا نفسها ، حين يكشف لها عن مصيرها ، فترغب عن نعيم الحياة زاهدة فيه ، وهل تسيء إلا إلى نفسها إن لم تر الحياة لها ؟ تغلب فيها الشياه على موارد المياه ، تنهل منها قبل أن يعكرنه عليها ، وتسبقهن إلى العشب النضر ، فتنال منه قبل أن يدنسنه ، وتنفرد بالظل الظليل تتفيؤه ولا تدعهن يزحمنها فيه ! ...

ويسكت له الشيخ ، وتثور فى نفس « رابعة » إنسانيتها ، فتطرق شبه مصدقة ، وما سكت الشيخ إلا ليثور « بالربيع » ، وما أطرقت « رابعة » إلا لتفزع على ثورة الشيخ وهو يقول :

إنك يابنى تؤمن بالحياة غاية لا وسيلة ... تؤمن بها طعاماً تشبع منه ، ولذة لا تفلتك ، ونعيما لا يغيب عنك منه شيء ؛ فأنت موصول بالحياة بجسمك ، مفصول عنها بروحك ، ترى الراحة فى شبع تصيبه ، ولذة تذوقها ، ومتعة تختطفها ، لا يردك عن هذا كله أن تكون ظالما إن ردك عن الشبع راد ، أو قاسيا إن صدك عن لذتك صاد ، أو عاتيا إن حيل بينك وبين متعتك ، تكاد تجمع الدنيا كلها لك ، وتجمع كلك لها ، ولو عشت لروحك لرأيتك جئت الوجود لتعطى لا لتأخذ ... تعطى من كدك

فتتسع الحياة للناس ، وتصدف عن لذتك فتُفيض اللذة على الحياة ، وتنصرف عن متعتك فترخص متعُ الحياة وتهون ! ... أترى إلى البستان ؟ ! ... ما أغلى زهراتـه إلاحين طمع الناس فى أكثرَ مالهم ، ولو قنعوا بالنظرة اللامحة ، والنفحة الخاطفة ، لاستمتع بالزهرة آحاد وآحاد ، ولما عزت على الأكثرين ، ولم تكن إلا من نصيب الأقلّين ، ولما انقسم الناس إلى غنىّ ومحروم ، وشقىّ وسعيد ، ولـمّا امتلأت نفوسُهم طمعا وحقداً ، ولـمّا انطوت على الشر والإثم ! ... أتفه اللذات ما نالت منها بطْن . وما وقعت تحت حس ؛ فتلك تسلبك راحة ، وتعقبك تعبا ؛ وأجداها عليك ماذقتها بلسان الوجدان ، ونلت منها بعين الفكر ، فتلك تعطيك ولا تسلبُك ، وتنشط عليها ولا تكسل .

مالكم — أيها النـــاس — تحبون الوجود ولا ترْقون إلى خالقه ؟ ! ... ومالكم تصلون أنفسكم بالوجود ، ولا تخلعون أنفسكم من الوجود لتصلوها بخالقه ؟... إنكم حين تحبون الوجود تضلون ، وحين تحبون خالقة تهتدون ، وإنكم حين تحبون الوجود تشـْقون ، وحين تحبون خالقه تنعمون ... جرِّبْ — أيها الإنسان — أن تستبدل بلذةٍ لذةً ، وسوف تلقانى لتحدثنى بعد حين ! . . .

وما يكاد الشيخُ يصل إلى هذا من حديثه حتى يكونَ المركَب قد بلغ مُرْسَاه، فينتفض من مكانه، وما أحسَّ به «الربيع»، ولا أحست به «رابعة»، إلا وهو ينقر الأرض بعكازته ويقول :

إن كنت لا تزال حريصاً على اسمى أيها الأمير فأنا «رياح بن عمرو» ! . . .

وهمَّ «الربيع» أن يلحقَ به، كما تحركتْ فى مكانها «رابعة»، ولكن الشيخَ كان قد بلغت قدماهُ الأرض وواراته الأشجار ! . . .

١٨

لقد انتصرت « رابعة » بالشيخ ، كما انهزم « الربيع » به، ولقد استحال شكُّ « رابعة » يقيناً ولكن لم يستحل يقين الربيع شكاً... إن « الربيع » موله بالدنيا، قد يُغلب على الحجة، ولكنه لم يُغلب على مايحس

وكانت « رابعة » يتحرك في نفسها ولَه تتنازعه قوتان : قوة يساندُها ماض ، وقوة دخل بها عليها حاضر بزخرفه وغروره ، فكاد يضمها إليه !...

ولقد سمعت « رابعة » إلى « الربيع » كما سمعت إلى الشيخ ، ولقد تحركت لكلام « الربيع » كما قرّت لكلام الشيخ ،وكان أول ما سمعت كلام « الربيع » فأنسيته ، وكان آخر ما سمعت كلام الشيخ ، فغادرت به المركب تساير « الربيع » في طريق ينتهي إلى القصر ، لا تعطيه يداً ؛ كما فعلت حين خرجت معه ، ولا تبادله على البسمة بسمة والكلمة كلمة ، وهي التي سبقته إلى البسمات ، وزادت عليه في الكلمات ، حين صحبها من القصر يغني بها إلى النهر ، ويدرك « الربيع » بها باب القصر فيدخله ، وينتهي بها إلى ظُلّة تُظل مقعدين يحاولُ أن يجعل منها مجلسين لهما ، وتحاول

هى أن تحيد به عنها ، تبغى طريقها إلى مخدعها ، ويجمد هو فى مكانه يحدق فيها بعينين راغبتين عاتبتين ، فلا تملك أن ترد عليه رغبته ، كما لا تملك إلا أن تُعتبه، فتميل معـــهُ إلى حيثُ أراد .

ويقرُّ بهما المقام قليلاً، فى صمت قليل ، لا يلبث الربيع ، أن يخرج عنه ،وهو يقول :

لا تُلـــقى بالاً يا « رابعة » لفلسفة الزاهدين ؛ فتلك فلسفة العاجزين !! . . .

وتهيَّأ « رابعة » لتقول ، وإذا لسانها معقود ، وإذا « الربيع » منصرف عنها ، يسمع ويرى ! . . .

لقد علا فى سماء الحديقة صوت ولدَى « الربيع » غيرَ بعيدين من مكانهما ، وأحس به « الربيع » قبل « رابعة » فسكت ، وحسبت « رابعة » « الربيع » فرغ ممــا يريد أن يقول ، فثارت لتجيب ، وكان الصوت قد ارتفع إليهـــا فوجمَت ، وشغل « الربيع » عن « رابعة » فالتفت يرى ما شأنهما ، وأوجست منه « رابعة » خيفة فانكمشت تتطلع ، فرأتهما جادّين فى إثر فراشة تتنقل بين الأزهار ، فارتد « الربيع » ببصره إلى « رابعة » لا ليسمعها متكلمة ، ولكن ليستمع هو وهى إلى حديث الصغيرين ، فلقد سمعَـا كبيرَهما يقول لصغيرهما :

ما لك حريص على إمساكها ؟! . . .

ورد عليه الصغير ، وهو مشغول بالجرى وراءها :

ما أجمل لونها ! ! . . .

فيجذ به الكبير وهو يسترحمه :

ألا يكفيك أن تنـــظرَ إليها وهى تطير من زهرة إلى زهرة ؟ ! . . .

فيرد عليه الصغير وقد أمسك بها :

إنها فى يدى أجمل منها فى الهواء ! . . .

فيقول له الكبير وقد أدهشه ما يسمع :

أجادٌّ أنت ؟ ! . . .

فيجـُـيبه الصغير بلغُــــة المُصِرِّ ، وقد زادت يده عليها شـــــدة :

أجَلْ ! . . أجَل ! . . .

فيتقدم منه الكبير ؛ وكأنه يلقى عليه درساً :

فأين منها جناحاها المبسوطتان ، وقد نشرتهما فى الهـــواء كالشِقلعين ، وهى بينهما كالسفينة تشق الفضاء فى خفة ، ولهـا هفيفٌ لطيف ، أو كأنها المحب الهائم ، وهذه الزَّهرَات غاداتٌ قد تفتحت أعينهن لجماله ، واحمرت وجناتهن لمزاره ، وتمايلن على قدودهن تحت مَطاره ، تود كل منهن لو ظفرت به دون

صواحبها ، وهو كالحائر بينهن ، يبصر الحسن قد اختلط عليه ، فلا يدرى كيف يميز بينه ، ويرى الخدود قد صعّرت تحت مبسمه ، فلا يعرف على أيها يقع ، ويرنو إلى الثغور قد تفتحت برشفها الحلو ؛ فلا يدرك أيها أحلى مذاقا ويطول بينهن تطوافه وكأنه قد أحس لهفتهن المشتركة إليه ، فتأبى عليه رقة قلبه أن يخص بهواه واحدة ، فيؤذى الأخرى ، فيلم بهن جميعاً عجلاً لا يطيل ، يقسم بينهن قبلاته ورشفاته ، وإذا هن عنه جميعاً راضيات ، وإذا هو عنهن جميعاً راض ، يحوم فوقهن غرداً طروبا ، وتمسسْنَ هن بين يديه قانعات فرحات ، وإذا الجو من حولهن غرد يشاركهن البشر والحبور ! ...

ثم انظر إليه فى قبضة يدك مقبــوض الجناحين ، أسيراً غير طليق ، وانظر إلى هذا الجوّ الذى كان بهجاً به منــذ حين قد خلا منه ، فلم يعد فيه متاع لعين ، وانظر إلى تلك الزهرات التى كانت به منذ حين صورة لذلك الخيال الممتع ، قد استحالت صورة حزينة لخيال حزين ! ...

وما أحسَبه إلا سيقضى نحبَه فى يدك بعد قليل ، وما أحسَب بعدها تلك اليد التى انضمتْ عليه مشوقة إليه . قد انفرجتْ به راغبةً عنه! ...

إنها المتعة الكاذبةُ المضلة التى تمتلىء بالأثرة ، وتفيض بالطمع ، وتدفع المرءَ إلى أن يجمع أسبابها كلها بين يديه . فإذا هو قد خرجتْ أسبابها كلُّها من يديه ! ...

ويسمعُ الصغير إلى الكبير وهو لا يدرى ما يقول ، فالفرق بينهما فى العمر سنواتٌ قد مكّنتْ للكبيرمن الدرس ، ما لم تمكّنْ للصغير . وكان كل همّ الصغير تلك الفريسة التى فى ملْك يمينه ، وهو بها بهجٌ وعليها حريص ، فما إن خوّفه أخوهُ مصيرها فى يده حتى فتحها عنها فى رفق لا ليطلقَها ولكن ليطمئنَّ عليها ، فإذا هى كما قدَّر أخوه كالهدم البالى لا جمال فيها ولا غَنَاء ، فأفرج عنها أصابعه لتقعَ تحتَ قدميه . وأخذ ينفض يدَه مما علق بها من دقائق ما خلّفت متقززًا متأففاً ، كأن يده لم تكن تضم فيها منذ حين أشهى ما يملك وأعز ما يَرُوم ! ...

ويلتفت إليه الكبير متحسراً : ما أنشط الإنسان حين يتمنى ! ...

وما أفتره حين يبلغ مناه ! ...

ولو أن الإنسان كان ينشد السعادة لنفسه حقا لحال بين نفسه وبين إدراك ما تصبو إليه ، فعاش على سعادةٍ موصولة وأمل باق ...

ونظر إليه الصغيرُ مشدوها :

ما أغمض ما تقول !

فيحنو عليه الكبير وهو يقول :

بل ما أيسرَه وأبسَطَه ! صل روحك بالحياة قبل أن تصل بها جسمك ، واجعل حبك لما فيها ، وهو فيها ، لا ليكون فى يديك !...

* * *

يقول هذا كبير الأخوين لأخيه وهو ممسكٌ بيده مبعداً به عن مكان أبيه . وما كان يعلم أن أباه منه قريبٌ يسمع ويكاد يرد عليه ، وأن إلى جانب أبيه من يسمع إليه أيضاً ويكاد يقضى له.

ولقد حاول «الربيع» أن يقول شيئاً «لرابعة» فلم يقدر . فلقد كان هو وهى أحرص مايكونان على أن يغادرا مكانَيهما حينَ دَنا منهما الصغيران، فما إن فرَّاعنهما حتى هبا ليغادراه : هو فى طريقه ، وهى فى طريقها ؛ فلقد كان الطريقَ إلى مقره من القصر غيرَ طريقها إلى مقرها .

١٩

وتمضي الأيام و « الربيع » خائرُ النفس مهموم : لا ينتفعُ بنفسه ، ولا ينتفع به من حَوْله ؛ فلقد بذل جُهده ليخلُص إلى « رابعة » حبيباً فما أفلحَ ؛ لأنها لم تَعد تؤمن أن هذا اللونَ من الحب هو بُغْيتُها ، ولقد بذل جُهده ليريدَها على أن تكونَ زوجةً فلانٍ يوماً ، ولكنها عادتْ ترى أنها لم تُخلق للدُّنيا ، وإنما خُلقتْ لما هُو أسْمى منها .

وتراه زوجُه على تلك الحال فتأسى . وما هي ببعيدة عما أمضَّ « الربيع » وأضناه ، ولا هي تجهل أمره فلقدْ كفتْها جوارِيها مئونة الجهد في البحث ، ونقلْنَ إليها حديثَ هذا الوَلَه الجديد . لا يكتُمن عنها شيئاً مما كان .

ولقد كانت « فارعةُ » زوج « الربيع » لا تحسُّ حرجاً كبيراً بمن ضمهن القصر من الجواري ، قبل « رابعة » ؛ فلقد كان « الربيع » بهن غيرَ مشغول البال ، غيرَ مُبَلبَل الفكر ، وما هن اللاتي يزحمْنَها عليه ، ولا يستأثرن به دونها . ولكن « رابعة » قد دخلتْ عليها بجديد ، وأيقظت فيها الحذرَ الذي

كان نائماً . وبعثتْ فى قلبها الغَـيْرةَ التى لا عهد لها بها .

ولقدكانت تطمئنُ إلى أنها زوجة ، وتلك جارية فأصبحت تخاف أن ينمو الحبُ فيكونَ زواجاً ، ولقدكانت تطمئنُ إلى أنها أم ولدَيْن، فأيقظ فيها الخوف أن كل أنثى وَلُود ، ولقد كانت تطمئنُ إلى أن «الربيع» يحبُّها ، فأمست تخافُ من أن يَغْـلب حبٌّ حبّاً ...

لذا أصبحت « فارعةُ » — كما أصبح « الربيع » — مهمومةً مشغولةً . بل لقد سبقَتْه إلى الهم وشغل البال ؛ ولقد فكرتْ فى « رابعة » فاهتمتْ يومَ وجدت « الربيعَ » بها مشغولاً . ولكن « الربيعُ » لم يفكرْ فى « رابعةَ » فيهتم إلا يوم بدتْ عنه صادفةً ودونه راغبةً .

ولقد أصبح « الربيعُ » لا يلقى « فارعَةَ » إلا قليلاً ، وهو الذى كان يلقاها كثيراً ؛ يلقاها مع أوقات الغـداء ، ويلقاها فى غير أوقات الغداء ، حين يخلو الزوجُ لزوجه ! ...

ولقد أصبح « الربيعُ » كذلكَ مشغولاً عن ولديْه لا يجلسُ إليهما ولا يجلسان إليه ، كما كان يفعل من قبل فى وقتٍ من نهار وآخَرَ من ليل .

٭ ٭ ٭

علمت « فارعَةُ » هذا كلّه من أمر « الربيع » فتحركت لتعمل

شيئا ترد به إلى « الربيع » هدوءه . وتوفر به على « الربيع » راحته . وتضمه إليها بعد أن كاد يفلت منها .

وتسعى « فارعة » إلى « الربيع » وهو حريص على أن يخلو بنفسه ، ويكاد يردُّها عنه فلا تجزع ، ويكاد لا يصيخ إليها فلا تيأس ، والمرأةُ إذا احتالت قدرتْ ، وإذا استشعرتْ الضُرَّ خلعتْ رداء الكِبْر ، وإذا امتلأتْ غيرة امتلأت حُنْكَةً وخبرة ، وإذا رغبت أن تسودَ لم تنسَ أن تجود ! ...

وهكذا وسعت « فارعةَ » الحيلة ، ووسعهــا التذلل ، ووسعتْها الخبرة ، وجادت « للربيع » كل ما تملكُ من ود .

والرجل إذا استأبى ذليلٌ مع هذا كله ولو إلى حين ... من أجل هذا جلس « الربيع » إلى « فارعة » يستمع ، ولم تدخل إليه « فارعةُ » أولَ ما دخلت بما يؤذيه فى « رابعة » فيشعرُ أنها موتورة فيكذبها ويخرج من يدها . ولكنها جمعت له من حديث الماضي لتحركه به ، فتحرَّكَ قليلاً ثم جمد ، وجمعتْ له من حديث ابنيه ، فسمع قليلاً ثم مل ، وجمعت له من حديث الحياة ، فرغب فيه قليلاً ثم صَدَفَ ! ...

ولكنها على الرَّغم من هذا كله فقد كسبته بعض الكسب ، وهيَّأته شيئا لما تريد أن تحدثه به ولقد أخذت تشوّقه إليه

تشويقاً حتى استحال هو سائلاً ، واستحالت هي مجيبه ، وحتى استحال هو متلهِّفاً واستحالتْ هي متمنِّعة ، وحتى استحال هو مُلحًّا ، واستحالت هي متأبِّية .

لقد كان الحديثُ الذى دخلت به « فارعةُ » على « الربيع » ، وأخَّرته شيئاً يمس « رابعة » ، ويُسخط « الربيع » عليها ، لقد كان ذلك هوى لهامع غير « الربيع » منعها أن تستجيب « للربيع » ، لقد كان حبًّا تسعى إليه خارج القصر ، على غفلة من رب القصر . لقد كان عشقًا ، والوسيط فيه تلك الجارية العجوز ، التى جعلها « الربيعُ » له على « رابعة » فكانت لرابعة ، عليه .

ولقد شك « الربيع » أولا وآمن آخراً ؛ شك حين ظن أن « فارعة » تعلم هواه بـ« رابعة » ، فهى تكيدُ لها . وآمن حين خُيِّلَ إليه أنها لا تعلم من هذا شيئاً ، وأنه الحرص منها على ألاَّ يكون فى القصر ما يَريب !

ولقد شكَّ حين ظنها لا تملك حجة على ما تقول ، وآمن حين رآها تضع الحجة بين يديه ، وما عليه إلا أن يتبين صحة ما تقول ! ...

ولم تكن « فارعة » مدعيَةً ، فهى تعلم عاقبة الادعاء ، ولم تكن غِرَّة فتحوك كذبا يرده العيان صدقا . فتعود مغلوبة ، وقد أرادت أن تكون غالبة ... لقـــد سعى جواريها إليها بهذا ،

وسَعَتْ هي إليه معهن فرأته وتبينته، ثم سعتْ هي به إلى «الربيع» تحمد الله أن ردّ إليه به الطمأنينة .

ولقد هم « الربيعُ » أن يثور بـ «رابعة» ، ولكن «فارعة» جهدت به حتى هدأ ، ولقد هم «الربيع» أن ينسى «رابعة» ويقذف بها بعيداً، ولكنها استرحمتْه لها لتخرجَ غير مهينة ! ...

فعلت هذا كلَّه « فارعَة » حتى لا يظنَّ بها «الربيع» الظنون ، وعاهدته على أن يستَوْثِقَ هو بنفسه كما استوثقتْ ، وعاهدتْه على ألا يكونَ قاسياحتى لا يكون ظالما، ثم ودَّعتْه وانصرفت، وهي تظن أنّها قد فرغَتْ من تلك المأساة ! ...



٢٠

فى الثلث الأخير من الليل وقد هجعت العيون ، وخيم السكونُ ، وخفتت الأنوار ، وأخذت تفهق بها تلك القناديل الزَّيتيَّة ترسلها ومضات متقطعة ، وسادت جنبات هـذا القصر الفسيح رهبة ؛ تؤذن بميلاد حادث جلل ، أخذ رجل مُتَّشِح بوشاح أسودَ ، يغطِّيه من رأسه إلى أخمص قدميه ، مكانه خلف سارية جامداً لايتحرك ، فبدا كأنه قطعة منها . ويطول بهذا المنتظر انتظاره ، فيتململ فى مكانه ، فينزاح عنه وشاحه قليلاً . ويتحرك من خلل الوشاح سيفُه فى غمده ، فتمس ذؤابته السارية فتحدث صوتاً ضعيفاً ، غير أنه يبدو مُجلجلا ، يتردد صداه فى جو الرَّدهة ، فيفزع له الرجلُ ، ويسرع فيضم إليه وشاحه ، ويعود كما كان جامداً وإنَّ عينيه لتلمعان ، وإنَّ أذنيه لتصيخان ، علَّه قد أيقظ بحركته راقداً ، أو نبه ساهراً ، حتى إذا اطمأنَّ إلى أن شيئاً مما يخاف لم يقع ، سكن روعه ، وغطى رأسه ، وعاد كما كان .

ويقطع هذا السُّكُونَ صوت ضعيف متقطع ، لايكاد يبدأ

حتى يقف، فيشغل الرجل به، ويمدُّ له رقبته قليلاً ،وقد أعفاها من غطائها . ويزيد الصوت ويتصل إلا أنه لايزال رقيقاً هيناً .
ويقوى الصوت هوْناً مّا ، فإذا هو صريرُ بابٍ قد انفتح لغرفة مقابلة ،وقف خلفه شبحان مؤتزران ، لاتكشف الظُّلْمة السائدةُ عنهما ! ...

ولقد تلبَّث هذان الشَّبحان قليلاً ، حتى إذا اطمأنّا إلى أن هذا الصرير لم يبلغ الآذان ، ولم يحرك الجفون ، وثبا فى خفة إلى الردهة . ولكنهما يحسان لإزاريهما حفيفاً يبلغ مبلغ الهمس ، فيخشيان وينصتان فلا يسمعان شيئاً ، ويمد أحدهما يده إلى الباب فيغلقه فى رفق وهوادة ، فلا يحدث صوتاً ولا يثـــير صريراً ! ...

ويخطو أحدهما أمام الآخر خطوات ، رفيقاً لايكاد يمسُّ الأرضَ بقدميه ، والآخر فى إثره يفعل مثل فعله.

لم يكن الخارجان غيرَ اثنين تعرفهما : « رابعة » وجارية « الربيع » ، التى وكلها بها ، تهيىء له فى قلبها ولم يكن هـــذا الواقفُ وراء السارية غير « الربيع » يرقُبهما فى الوقت الذى وقّتته له « فارعة » .

ولقـــد همَّ « الربيع » أن يهوى بيمينه إلى سيفه ، ولكنه

استمسك ، لقد كشفت الخيانة عن رأسها ولكن حب « رابعة » لم ينكشف عن قلبه ، وهو يعرف المرأة لمن غلب ، فليس ثمة نزاع بينه وبينها ، ولكن النزاع بينه وبين من غلبه عليها . وما يعنيه أن يقتل « رابعة » ، فيبقى حبها فى قلبه يشقى به ، ولكن يعنيه أن يقتل منافسه فتبقى له « رابعة » ، ينعم بها .

لهذا ما أدرك أن يثور حتى أدرك أن يهدأ ، وجرى فى إثرها ليلقى منافسه عليها .

ولقد التقت « رابعة » والجارية عند باب السلم الخلفى بحارسه. فيسّر لها النزول ، وأعانها عليه ، فعلم « الربيع » أن هوى « رابعة » غالب ، تغلب به الحراس والأغلاق ، وأن لها على هواها أكثر من عون ، والأعوان لا يُراضون إلا بالبذل الواسع ، ولا يجود به فى مثل ماتجود هى ، إلا من تيمه الحب ، فاستهان فى سبيله بكل عزيز .

فكبر حقده على « رابعة » ، وصغر على منافسه ، ومد يده ثانية إلى سيفه ، حتى إذا ما تهيأ لأن يلحق بها على السلم . أحس يد رفيقة تربت على كتفه . وصوت خفى ناعم يسر فى أذنه : ألم أنصحك أن تكون رحيا .

ولقد خال « الربيع » هــذا فى ثورته شيئاً مما يخيله هواه

« رابعة » ، من الوهم ، فقد يسراه يُزيح يده هذا الكابوس عن كتفه ، ويدفع صداه عن أذنه ، فإذا هو يحس بيد يداً رخصة ، فيفزع قليلاً ، ويدور برأسه فيلتقي وجهه بوجه شد ثه ، ولكنه رآه مقنَّعًا فلم يتبينه ، ورأى صاحبه متشحاً بالسواد ، فارتدَّ قليلاً عن مكانه ، وقد تولته هيبة ! …

ويدرك هذا الطارقُ بليل ما أصاب « الربيع » ويخاف أن يثورَ به فيقع مالا يحمد ، فيرفع يدَهُ في خفة ليكشفَ عن وجهه ، ويأخذ في الحديث معه ليطمئنه .

لقد علم « الربيعُ » أن الطارق زوجُه ، وأنها خرجت في الموعد الذى وقّتته له ؛ لترد « الربيع » عن حدٍّ قد تضطره الثورة إلى مجاوزته ؛ ولترده إليه إن شاء له حبُّه أن يرجع به عنه . ولقد وجدتْه عندما فرضت أولاً ، وخافت عليه الغلو فتقدمت إليه لتحولَ بينه وبين ما أراد .

ولقد شكر لها « الربيع » ذلك ، ووعدها أن يكون عند مشيئتها ، ولكنه لم يَفُتْه أن يلومَها لوماً رفيقاً على هذا المجيء ، فرجعت دونَ أن تقول شيئاً .

وما كاد « الربيعُ » يخلو بنفسه حتى عدا في إثرهم جميعاً : « رابعة » ، و « الجارية » ، و « الخادم » ، ولقد أدرك الباب الأخير

المفضى إلى خارج القصر ، وهم يغلقونه . فاستشاط غضبا ، وظن أنه قد حيل بينه وبين لحاقهم ، إلا بعد جهد يطول به الوقت فيفوتونه ، ولكنه اندفع إلى الباب ، دون وعى ، وما كادت يده تلمسه حتى وجده ليّنا فى يده ، فعلم أنه غير موصد ، وأدرك أنهم تركوه غير مغلق ؛ كما تركوا الباب الأعلى ، حتى لا يكلفوا أنفسهم عناء ولا يحدثوا ضجيجاً .

وما إن رأى « الربيع » الباب فى يديه يطاوعه ، حتى فتحه فى رفق ، ورده فى رفق ، ووقف يتطلع فى الفضاء المحيط ، فرأى ثلاثتهم يخطون بخطى متئدة ، غير بعيدين منه ، فخف يتبعهم ، وما كاد يدانيهم ، حتى رآهم يميلون يمنةً ثم يسْرة . فعلم أنهم يفعلون ذلك ؛ ليضل من يتبعهم ، وكذلك يفعل الحذرون ، فظن « برابعة » الخبث ، وكان يظنها بريئة ، ولكنه عاد فجعل إثم ذلكَ كله على من معها ! ...

ولقد أوشك « الربيعُ » أن يكون خطوه فى لَصْق خطوهم ، حتى لا يفوتوه أو يضلُّوه ، ولقد أوشكوا هم أن يحسوا به . ولكنَّهم كانوا آمنين ، فلم يلتفتْ منهم إلى الوراء مُلْتفت ! ...

ولكم كانتْ دهشةُ « الربيع » حين وجدَ نفسه وإياهم على باب مسجد صغير ، يجاور القصرَ . ووجدهم يتهيئون لدخوله ، فظنها

خدعة أخرى ، وزاد ظنُّه بخبثهم ، ولكنه وجدهم يدخلون ، فأيقن أن الحبيبَ الموعود موعده المسجد ، وأسرَع يدخل فى إثرهم مع الداخلين من المصلين ليعلم ما سيكون ! ...

٢١

لعلك لم تنسَ أخواتٍ ثلاثًا تركناهنَّ منذ خمسةَ عشر عاماً ، على حسرة حين فقدن « رابعتهن » ؛ فلقد أحسسْنَ الأسى يملأ عليهن فراغَ البيت ، ولقد كانت تملؤه عليهن بَهْجَةً ، ولقد كانت لهن أملاً اجتمعنَ حوله ، حتى إذا ما ضللنا ضللن هذا الأمل فى قلوبهن ، وفرَّقتْ بينهن الأهواءُ المختلفة ! ...

ولعلَّ القدر الذى كلَّم القلوب بيدٍ شاء أن يأسوَها بأخرى ، فلقد حرك فقدُ « رابعة » القلوبَ أكثر مما حركها فقدُ الأب ثم فقدُ الأم ، فإذا الفتيات الثلاث ، اللائى عشن غير مرغوب فيهن ، زوجات يتخطفن فى عشية وضحاها ، وإذا هن بعد حين أمهات ، ولكن فى غير « البصرة » مثواهن . وفى بلاد مختلفة مقامهن . ولكنهن وإن كنَّ جميعاً قد تركن « البصرةَ » ، إلى غير رجعة ، وغابتْ عنها أشخاصُهن ، فقد تركْنَ فيها أحدوثةً باقية لم تغبْ عن أهلِ « البصرة » ، يَرْوُونَها كلما جمعَهم مجلس لسَمر ، ويذكرون كيف كانت « رابعةُ » ، فألُ خير للأسرة حين جاءت وحين ودَّعت ، ولقد دخلت هذه الأحدوثةُ القصور كما

دخلت الأكواخَ، تَرويها العجائزُ فيَتنمّقْن فيها و يزِدْن .

وضم قصر « الربيع » – كما ضم غيره – عجوزاً من هؤلاء العجائز ، كانت خالصة لفارعةَ زوجِ « الربيع » ، تسرِّى عنها بنوادرها وملحها ، كلما ضاقت نفسُها أو وجدتْ شيئاً من فراغ .

وحين عادت « فارعة » ، بعد لقائها « الربيعَ » ، فى موقفه هذا ، الذى تهيأ فيه للكشف عن أمر « رابعة » ... عادت ضيِّقةَ النفْس توجس خيفةً ، لا لأنها حاكت كذباً تخاف افتضاحَه ، فهى لم تقل ما قالتْ إلا عن دليلٍ تبيَّنته ، ولكنها أيقنت أن « الربيع » ما تحركَ للأمر هذا التحرك ، إلا عن حب عميق « لرابعة » ، ولو كان شيئا من الهوى العابر لاقتنع بما قالت ؛ ولقضى فيه لساعته ، كما أيقنَتْ أن مثل هذه الخرجة لن يعود منها الربيعُ برأس رابعةَ ، ولكنه سيعودُ برأس منافسه ، وسيخلو له بعدَها قلبُ « رابعة » . . فما أخسرَها هىَ إذن وما أربحَه!... كما أيقنتْ أنه ما صرفها إلا واجدًا عليها أنها آذتْه فى هواه ، وإن صدقَتْ . فذَوُو الهوى المجنُّون يُضارُّون بنصح الناصح ، ويتنكرون له ولصاحبه .

وما آبتْ « فارعةُ » إلى مخدعها حتى كانت العجوز فى إثرها مدعوّةً إليها ، تشاركُها فيما ناب ... وجلستْ العجوزُ إلى

« فارعة » تحدثها ، وكان أول ما طرقتها به فى مجلسها هذا أحدوثة « رابعة » ... أخذت ترويها بأسلوبها المروّح وتهويلها المغرق .

ولقد دهشت العجوزُ حين رأت « فارعة » مقبلةً عليها فى لهفة ، حريصةً على ألا يفوتَها شىء — وهى التى كانت من قبلُ لا تصبر لقصَّة ، مهما قصرتْ ، ولا تلقى بالا لما يُروَى وإن شاق . وأقبلتْ العجوزُ على « فارعةَ » تستقصى دقائقَ ما تعرف ، تفصِّل مادقَّ ، وتوضِّح ما غمض . وتتكلم عن يُمن « رابعة » فتُطيل.وسَعْدها فتطنب وتفيض .

ولقد استمعتْ « فارعةُ » إلى القصة بطولها فلم تَملّ . ولكنها لم تشاركْ العجوزَ آخر الأمر رأيها فى يمن هذه الطفلة الصغيرةِ ، بل عدَّته شُؤْماً ، وانقلبتْ تناقش العجوز الرأى . وتسفِّه عليها المغزى ! ...

لم تكن العجوزُ تعلم أن « رابعةَ » الصغيرة التى ضمَّها ذلك الكوخ هى «رابعة» الكبيرة التى ضمها هذا القصر ، ولا أنَّ « رابعة » الصغيرة التى تلقاها « الربيعُ » بالأمس مولودةً يُهدى إليها مالَه ، هى « رابعةُ » الكبيرةُ التى يتلقاها « الربيعُ » اليوم كبيرةً يهدىإليها قلْبه ، ولا أن « رابعةَ » الصغيرةَ التى خرجت عن «البصرة» بالأمس البعيد لا تنافس أحدا ، قد عادت

إليها اليوم لتنافس امرأة الأمير على زوجها .

ولم تكن تعلم « فارعة » أن « رابعة » الكبيرة التى شغلتها اليوم بشخصها، هى « رابعة » الصغيرة التى خرجت عن « البصرة » فشغلتها بحديثها . ولا أن فتاة الأمس ذات المهد الوضيع هى فتاة اليوم التى توشك أن تكونَ ذات السرير الرفيع ، ولا أن « رابعةَ » الصغيرةَ التى خرجت عن « البصرة » مخطوفةً ، عادت إليها كبيرة لتخطف منها زوجها .

ولم يكن « الربيعُ » يعلم أن « إسماعيل » أبا « رابعةَ » ما حماه أمسِ من الغرق فى الماء إلا ليدفعَه اليومَ إلى الغرق فى الهوى ، ولا ردَّ عليه حياته بالأمس إلا ليحفظَها « لرابعة » اليوم ، ولا أحسنَ إليه حين أحسنَ مستجيباً لعاطفته إلا ليحسن هو اليومَ إلى « رابعة » مستجيباً لحبه .

ولقد أطرقتْ « فارعةُ » مهمومةً لحظة ، ثم أفاقت متهللة الوجهِ ؛ لأنها قد وجدَتْ فيما حُدِّثَتْ به شيئاً ينفعُها ، فصرفت العجوزَ واستعدَّتْ للقاء « الربيع » .

٢٢

لقد تركنا « الربيع » فى المسجد منذ حين مستخفيا متطلعا، يرقب الداخلين واحدا بعد واحد، ويرقب الجالسين فى حركاتهم وإيماآتهم، وهو كلما شُغِلَ بصره بالنظر إلى الناس لحظةً عاد فشَغل بصره «برابعة» اللحظات كلَّها، حتى لقد أخذ عليه الناسُ نظرته الخاطفة لهم، ثم لفتاتِه الدائمةَ إلى حيث تجلسُ « رابعة »، آخرَ الصفوف. ولقد رأوه رجلاً متدثراً فلم يعرفوه، ورأوه والسيف إلى جانبه، فحسبوه من جند السلطان فزع إلى المسجد فى أمر، فحذروه وهابوه.

وانتهت الصلاةُ كما تنتهى كلُّ صلاة، وهمّ « الربيعُ » واقفًا ليخرج، حتى يسبق «رابعة» قبل أن تسبقه هى فتوصدَ الباب دونه؛ وليعلم بقية أمرها خارجَ المسجد بعد أن علم بعضَه داخله. ولكنه وجدَ الناس يلتفّون حول شيخ ليعظَهم، لا يتخلف منهم واحد، ولقد أسرعتْ «رابعة» وأسرعتْ معها الجارية فجلستا فى الحلْقة ناحية، فلم يجد « الربيعُ » مندوحةً من أن يجلس مع القوم فجلس، ولم يكد ينظرُ إلى الشيخ حتى عرفه، وعرف أنه الشيخ الذى دخل

عليه المركب منذ أشهر ؛ ليفسدَ عليه يومه، وهاهو قد دخل عليه المسجد اليوم ليفسد « رابعة » عليه .

ترى من يكون المنافس « للربيع » على « رابعةَ » إن لم يكن هذا الشيخ ؟ أليس هو الذى يبغى أن يفصلَها عن « الربيع » وهكذا يفعل المنافسون ، أليس هو الذى يبغى أن يؤذىَ « الربيعَ » فى حبه لها ؛ وهكذا يبغِى المنافسُون .

إذن فأحقّ من ينشد « الربيعُ » بعدوانه هو هــذا الشيخ ، وأحقّ من يجرد عليه « الربيع » سيفه هو هذا الشيخ ، وأحقّ ما يظفَر به الوليد ليخلُوَ له الجو ، ويطيب نفسًا ، هو رأس هذا الشيخ .

على هذا عزم « الربيع » ، وعلى هذا استقر منه الرأى ؛ لهذا اختار « الربيعُ » من الشيخ مكانًا يستطيعُ أن يخلصَ منه إليه فى يُسْر ، ولهذا وقف « الربيع » يدبّر لوثبته ، على حينَ جلس الناسُ كلُّهم هادئين خاشعين يسمعُون للشيخ .

ولكن « الربيعَ » ما لبث أن وجدَ قلبه الثائر يهدأ بكلمات الشيخ النَّدِيَّة ، وما فتئت غلظته أن استحالَتْ رقة ، وقسوته أن تبدلت لينًا ، وإذا هو يبكى مع الباكين ، ويستغفرُ الله مع المستغفرين ، وما انتبه إلا على صوتِ الشيخ وهو يقول :

قوموا يرحمكم الله ! ...

وخرج « الربيع » مهموماً يثب وهو يحسب أنه مبطىء ، يخف وهو يظن أنه متثاقل ، وكان أخشى ما يخشاه أن تدركَ « رابعة » الباب دونَـه فتوصِدَه . فلقد أدركه هو دونها ، ورقى فى السلم يطوى الدرجتين والثلاث ، لم يلتفت وراءه ، ولم يتلبث ليرى « رابعة » ، فلقد اطمأن إلى أنها فى إثره حين سمع همسها . فقنع بهذا ولم يكلف نفسه غيره .

ومضى إلى غرفته يطلب النوم فلم يظفر به . ولكنه لم يحاولْ أن يخرجَ من الغرفة شطراً كبيراً من بياض النهار مضطجعا يفكر ويسائل نفسه :

تُرى كيف وصلتْ « رابعة » حبلَها بحبل الشيخ ؟ ...

ولا يكاد « الربيع » يُلقى هذا السؤال على نفسه حتى يجد جوابَه حاضراً فى ذهنه ؛ فلقد ذكر أن هذا الخادم الذى فتح لها الباب ، ويسّر لها الخروج ، وصحبها إلى المسجد ، مِنَ الذين حُبِّب إليهم غشيانُ مجالس الشيوخ ، وهو لا بد عرف « رابعة » ، وعرفته حين تهبطُ إلى الحديقة فى هذا السُّلَّم ، وهى لا بد كلمتْه وكلَّمها ، وعرف كلٌّ ما عندَ أخيه ، فألَّف ما بينهما هذا المَيْل المشترك ، وهو لا بد حدَّثها حديثَ الشيخ ، وربما

ذكر لها اسمه . وهى التى لم تنسه منذ دخل عليها المركب ! ...

وما كاد «الربيع» يطمئن إلى هذه حتى عاد إلى نفسه يسألها :

وكيف بهذه الجارية مشت فى ركب « رابعة » وهى لا عهد لها بهذه العبادة المُشْرِقة . ولقد كان يرجوها أن تردَّ « رابعةَ » إلى قليل من القصد . وتقرّبَ الشُّقة بينه وبينها فإذا هى على النمط، وإذا هى أطوع لها من يمينها ! ...

ولكنه لم يَعدَم جواب ما أثار «فرابعة» لاشك أقوى نفساً، وأصلبُ عوداً مما كان يظن . و « رابعةُ » ذات يقين لا يخالجه شك ، و « رابعة » خُلقت لغير حياة الناس ، فلم تضمَّها إليها زخارفُها المبذولة، وسَرعان ما استهوتْها كلمات الشيخ المعسولة. وليست كذلك الجارية . ولقد أخذ يقول لنفسه :

ألم أضع الدنيا بين يديها فردَّتها علىّ ؟ وما وضع الشيخ رجليها على سبيل الزهد حتى استوتْ عليها تسعى ؟ ... ألم أبذل لها الحب فاستجابت له بروحها ؛ لأنها خلقت للحب ، ولم يستجب له جسمها ؛ لأنه كان مصروفاً عن الدنيا انصراف روحها عنها ؟ ... ألم أسمعْها وهى تريد أن تسموَ بجسمها عن الوجود تشبّه نفسها مرة بالنَّجم الخفى ، يسمو فى سمائه ، يتحدث الناس عنه دون أن تمتلىءَ أعينهم برؤيته ، ثم تشبه نفسها أخرى بالكنز

المخبوء ، يضع الناسُ حولَه الأساطيرَ يسمُرون عليها ، ولا تصل إليه أيديهم فتَـنْـبَش عليه لآلاءَ جواهره وصفائها ؟.. ثم ألمْ أسمع إليها وهى تختم حديثها معى فى الزواج وتقول :

إن الروح جسم لطيف طاهر وما أُحبُ لجسمى ، وهو وعاءلروحى ، إلا أن يكونَ فى طُهره ونقائه ؟ ... ثم ألم أرها تتأذّى ، حين كانت تمس يدى يدها ، ويكاد يدنو جسمى من جسمها ترى أنّـها تنحطُ بذلك إلى الدنيا وهى تريد أن تعلوَ عنها ؟ ! ...

ثم مضى يقول :

ولكنى ما أشكُ أنها كانت على أن تنساقَ فى دنيا الناس لولا أن ردَّها هذا الشيخ عنها ؛ فلقد كانت قبل أن ينزل الشيخُ « البصرة ، تكاد تحيـاها ، حتى إذا ما نزلها لم تعد تحب شيئًا فيها . وكنت أظنها لُـقْـيَـةً أُولَى لن تراه بعدَها ، فإذا هى فى حضرته مع فجركل ليلة تستمعُ إليه فيردُّها عما سعيْتُ أنا إليه ! ...

حدّث « الربيعُ » نفسه بهذا كله ، ثم تململ فى فراشه تملمُل الموجع وهو يقول :

قد كنتُ أستطيع أن أرسلَ حبلَها على غاربها فهيمَ فى الحياة كيف تشاء لولا أنها فتحت علىّ هوى نغّص حياتى ، وبلبل

بالى ، وما أظنُّنى أستطيع العيش دونَها ! ...

وفجأة أخذ يتَّجه باللوم إلى نفسه معنفًا وهو يقول :

مالى لم أخلُص من هذا الشيخ ، وقد تهيأتْ لى الفرصه لا بعدَه من طريق؟... ومالى قد لِنْتُ لكلماتِه. وفترتْ نفسى، واسترختْ يداى ؟ ...

ويسكتُ لسانُه ليتحركَ فكرُه ، فإذا هو ساكن مشغول ، هادىء قلق ، واجمٌ مضطرب ، وإذا هو بعد هذا الجهد الثقيل، ثقيل الرأس قد غلبَه النوم فنام ! ...

٢٣

وتصبح « فارعة » فتجد القصر كعهدها به أمس ، لم يتخلف منه شئ ، و « رابعة » فيه غادية رائحة ، لا ينطق وجهها بمكروه ، والجارية على طبعها بشوشة ثرثارة .

غير أن شيئاً واحداً فاتها أن تراه لتختم به القصة ، وتعرف ما أسفرت عنه . لقدرأت أبطال القصة كلهم ولكنها لم تر « الربيع » ... لقد اعتاد أن يبكر للناس ، يجلس إليهم مجلس الفصل ، يقضى فيما بينهم ، وهاهم أولاء الناس قد تجمعوا له مبكرين ، وانتظروا حتى ملوا الانتظار ، وضجر بعضهم فانصرف ، ولم يبق منهم إلا ذو حاجة ملحة لا تمسك إلى غد ! ... ولقد لبث هؤلاء — ما ابثوا — حتى أوشك اليوم أن ينتصف ، ويغلب اليأس الرجاء . فولوا هم الآخرون منصرفين ! ...

ولقد حاولت « فارعة » أن تعرف ، فعرفت أنه متعب ، وأنه قد آثر النوم يومه على الخروج للناس ، وحاولت أن تلم به فردت عنه فى رفق ، فلبثت تنتظر يقظته قلقة عليه . قلقة بما عندها ؛ تريد أن تلقيه إليه ؛ قلقة بخبر الأمس تريد

أن تعرفَ ما كان فيه ! ...

وَيجْتمعُ إليها جواريها وتسمع لهن ، وهى ساهمة مشغولة بهذا كله ، لاتكادُ تعى عنهن شيئا ، ويقضين بين يديها الساعات ، لا ينصرفن عنها ؛ لأنها لم تأذَنْ لهن فى ذلك ! ...

ويطل المساء فيســودُ القصرَ هرج ومَرج ، ويكثر الداخلون إلى « الربيع » كما يكثر الخارجون عنه ، وليس منهم إلا مُنكر واجم ! ...

وتنقل هذا إلى « فارعة » نافلة ، فيشتدُّ قلقُها على «الربيع» ، ويهون قلقها بما عندها ؛ كما يهون عليها خــبر الأمس، وتسكُن توجس خيفة .

وتحاول « فارعةُ » أن تقصد إلى « الربيع » فترد عنــه أيضاً ردًّا رفيقاً، فيدخل عليها هذا الرد الرفيق بقلق ثقيل ، ويزدوج عليها همُّــها ...

وتَنقل إلى « فارعة » نافلة أن «الربيع» أرسل فى طلب القاضى ، فيضطرب عليها تفكيرُها ، وترى الأمر شيئاً غير المرض ، تؤوله مرة لها فتَـراح قليلاً ، ومرة عليها فتعبس وتقطِّب ! ...

ويأتى « فارعة » الخبرُ بأن القاضى ما كاد يستقر بين يدى « الربيع » حتى دُعيتْ إليهم « رابعة » .

عندها يجن جنونُ « فارعة » وترى نفسها فى حيرة مغلقة . لامنفذَ منها لراحة، تصوِّر الأمر كاتخال فلا تراه يستقيم. فتصوغه فى قالب آخر ، فتراه أكثر تعقيداً ، فترده إلى شىء بين هذا وذاك. فلا يعتدل ولا ينبسط .

ويشاركها مَن حولها فى مذاهبها التى تذهب إليها ، فلا يغنين معها شيئا ، ولايزدْن الأمرَ عليها إلا تعقيداً وتلبيسًا .

وتقوم عنها من تتحسس لها الخبر ، وتلبث « رابعةُ » فى انتظارها وقتاً طويلا ، فلا تعود ، فتظن سوءا ما أكثر ألوانه ! . . .

وترسل « فارعة » فى إثرها أخرى ، وتكاد تستبطئها فترسل فى إثرهما ثالثة ، ولكنها تفاجأ بعودتهن مطرقات كئيبات ! ...

وتتعجلهن فارعة تعرف ما عندهن ، فلا تجد شيئاً يغنى ، فقد شهدن « رابعة » تخرجُ مطمئنةً فرحة ، ثم شهدن القاضى ومن معه يخرجون يعلو وجوههم أسى ووجوم . ما شهدْن غير ذلك ، وما سمعن شيئاً ؛ فلقد كانت الأمور تجرى فى صَمت صامت ! ...

وتهم « فارعة » تحاول أن تدخل على « الربيع » فترد ردا رفيقاً ؛ فهو ما يزال مع نفر من الوجوه وذوى الرأى .

وهى حين تعود تلقى ابنيها، فتجد شيئا من برد الراحة ، و تميل إليهما ، وما تبلغهما حتى تستوى بيديهـا على عاتقيهمـــا ، تكاد تضمُّهما إليها ضمًّا ، وهى تسير الهُوَيْنىَ حتى تبلغ بهما حجرتها ، فتدخل إليها لتستريح وتخلو إلى ولديها ! ...

وتنقل إليها ناقلة أن « الربيع » خلا إلى نفسه ، فتخرج معتمدة على عاتق ابنيها ، حتى إذا ما أوشكت أن تبلغ مخدع « الربيع » ودَّعتهما ودخلتْ عليه وحدَها .

ولقد ساءها أن وجـــدت « الربيع » متجهما فشغلهـا ذلك عن أن تبدأه بتحية ، أو تلاينه فى الحديث ، ولقد ساء « الربيع » منها هـــذه الخُشونة ، فتململ فى مكانه وكأنه يؤذنها بالخروج عنه . فيُغضبها من « الربيع » هـــذا ، وهى تعلم عنه أنه قد دعا إليه « رابعة » منذ حين ولم يَدْعهـــا ، فانطلقتْ تلومُه على إيثاره عليهـــا فتاة هينة المنبت ، وانطلقت تذكرها بما سمعت من قصص الجارية فيها ، لا تذكر منه إلا ما يَشينُ حَسَبَ « رابعة » ويطعَنُ فى نَسَبها . ولقد أعدته لتقوله للربيع حديثاً عابراً ، فأبت الأقـــدارُ إلا أن تلقيَه عليه عتبًا قاسِيًا .

ويسمع « الربيع » فلا يظن إلا أنهـا على علم بما كان يدبرٌ هو

ليلته ، وأن هذا منها غيرة وشماتة ، فيكاد يثور بها ، ولكنه يملكُ لسانه ، غير أنه لم يملك أن يُوَلِّيهــا ظهرَه ، فتوليه هى الأخرى ظهرَها وتخرج ، ولكنْ بعد أن تكونَ قد فرغَتْ مما تريد أن تقولَ .

٢٤

لقد رأى « الربيع » حين أفاق من نومه على إثر عودته من ملاحقة « رابعة » رأياً ارتاح إليه ، ولكنه لم يشأ أن يبرمه حتى يستشير ، فبعث إلى غير واحد من خُلصانه يسألهم : فمنهم من رضيه له ، ومنهم من أباه عليه . وكان الراضون قلة والآبون كثرة ، ولكن الراضين كانوا ينصفونه فى حبه ، فاستمع إليهم ؛ وكان الآبون يقسون عليه فى هذا الحب ، فلم يسمع لهم .

وما انتهى «الربيع» مع الراضين إلى ما أحب ورضى ، حتى أرسل فى طلب القاضى ؛ ليعقد له عُقْدة الزواج « برابعة » ، وبعث فى طلب « رابعة » تلى أمرها ، أو توليه من تشاء ! ...

وأراد « الربيعُ » أن يجرى هذا سراً عن زوجته حتى لا تقوم دونه العراقيل ، وحَسْبه ما كان ، ولم يشأ أن يبطىء به فقد ذاق من حب « رابعة » عذاباً ، وأراد أن يفجأها به مبادراً ، قبل أن يستولى « الشيخ » على البقية الباقية من قلبها ، فيمضى بما بقى له من أمل .

ولقد آمن « الربيع » — كما آمن معه من رأوا رأيه — أن

الأمر مقضىٌّ فى يسر ؛ فلقد جرب « الربيع » معها الأمور أولاً ، فى غير حزم ولا إصرار ، وكان ظنه وظن من معه أنها حَسِبَتْه غير جاد ، وأنه يستهويها بهذا ؛ ليزيل بها إلى غيره مما تكره ، لهذا أبت ورفضت ، وكان ظنه وظن من معه أنهم حين يكثرون عليها ، ويحيطون بها ، ستضعف دونهم وتتراخى ، وكان ظنه وظن من معه أنهم حين يفسحون لها فى الآمال ، ويغرونها بالأطماع ، سوف تذل لهم وتخضع !...

ولقد دخلت عليهم «رابعة» ، لاتدرى ، ماذا يدبِّرون بليل ، ولا ترى غير أن « الربيع » يدعوها لجلسة من تلك الجلسات الخاصة ، التى يعقدها مع العشـــايا تغنيه وتضرب له ، فلم تذهب إلا والجارية فى إثرها ، تحمل لها العود كما تعودت من قبل !...

ولكنها ما كادت تدخل عليهم حتى رأتْ شيئاً جديداً !... رأت « الربيع » ينهض عن مجلسه يفسح لها مكانا إلى جواره ،وكانت من قبل تجلس قبالته دون أن يتحرك لها ، ورأت حول « الربيع » قـــلة من الشيوخ ، ليسوا من أهل السماع ، ولا ممن اعتادوا أن يحضروا مجلس الغناء . ولم تر الخدم يسعون بين أيديهم بكئوس الشراب ، وما كذلك كانوا يفعلون إذا تهيئوا لمثل هـــذا

المجلس ، ورأت بينهم شيخاً وقوراً ، تنطق سيماه بالمهابة والإجلال ، فأكبرت « رابعة » ما رأتْ وأيقنت أنها مسوقةٌ لأمر ذي بال

ويُحس « الربيع » الوُجوم على وجه « رابعة » ، فيتلطف إليها فى الحديث ، يؤنسها حتى تهدأ ، ويراها قد استرسلت تفكر ، فيشير إلى القاضي ليبدأ .

وتستمع « رابعة » إلى القاضي بَعْدَ أن عرفته ، يعرض عليها ما رغب فيه « الربيع » وكأنه أمر مقضىّ ، وما دُعى هو إلا ليُتمه .

وتحاول « رابعة » أن تتكلم بعد ما استجمعت شارد لبها . فينبرى لها أحد الجالسين . ولا يمهلها ، يريد أن يردها إلى الموافقة ، ويلفتها عن الإباء

وكلما حاولت « رابعة » أن تقول برز لها من بين الصف من يتكلم ويطيل . وهكذا كتب على « رابعة » أن تسمع ، كما كتب عليها ألا تتكلم ؛ حتى إذا ما ظن القوم أنهم انتهوا إلى ما يحبون ، وأخذ القاضي قلمه ليخط ما يجب ؛ — وقفت بينهم « رابعة » ثائرةً بالقاضي . وثائرة بمن حول القاضي ، وثائرة « بالربيع » نفسه وهى تقول :

ومن أدراكم أيها الناس أن « رابعة » ترغب فيما تعرضون ؟ ... لقد وهبت نفسى لله أيها الناس ! ... فهل ترونى أستبدل به ؟ ... لقد وجدتُ حُبى أضيقَ من أن يتسع له قلبُ إنسان ، فجعلته لله الذى لا يضيق حنانه بشىء ! ... ولقد امتلأ قلبى بحب الله ، ومُحال أن يزحم قلبى معه حب سواه ، ولقد شئت أن يعيش جسمى لقلبى فلا يعوقه عما أخلصت قلبى له ... ولقد رأيت الشغل بدنياكم يعوق القلوب فاطّرَحْتُه ، ورأيت مشاركتكم فى دنيا كم ملهاة للقلب . فنبذتها ! ...

ألا رُدّ أيها القاضى إليك قلبك ؛ فما أظنه يجرى برضاى ، وما أظنك ستملكه . ثم حسبكم أيها الناس فقد أرضيتم أميركم ، ولكنكم لم تفكروا فى إرضائى . ثم تلتفت إلى الربيع وهى تقول: رفقاً بنفسك أيها الأمير؛ فإنى أقسم لو رغبتُ فى الدنيا لكنت أنت من أرغبُ فيه ، ولكن عذرى أنى بالله عنك وعن دنياك مشغولة .

ويسود المجلسَ صمتٌ رهيبٌ ، وينظر القومُ بعضُهم إلى بعض . ولا يتكلمون ، ولكن الجارية التى أحبت « رابعة » وأخلصت لها ، كان يسَرها أن تَرضى « رابعة » ، وكان يسرها أن تنتهى حياتها بمثل ذلك ، لهذا بدتْ قلقةً و « رابعة » تتكلم ، وبدت متململة و « رابعة » تثور ؛ ولقد حاولت أن تردها إلى شىء من

الهدوء ، فلم تـفلح ، وحاولت أن تقطع عليها حديثها ، فلم تستطع ؛ فاستمعت إليها مع القوم حتى فرغت ، ثم توجهت إليها ناصحة وهى تقـــول :

على رسلك يا « رابعة » ولا تحاولى شططا .

ولـكن « رابعة » لا تدعها تمضى ، وتلتفت إليها فى رفق ، وهى تقـــول :

لقد جرَّبت معى حُب الله فكيف وجدته ؟ .. إنهم يخيروننى بين الله وبين « الربيع » فهل ترينى أختار « الربيع » وأترك الله ؟ ... إنهم يريدون أن يبيعونى للربيع ، وقد بعت نفسى لله ! ...

ثم تلتفت إلى « الربيع » ، وهى تهم بالانصراف : لن أحسبك أيها الأمير منتفعاً برابعة ، فاصرف هواك إلى غيرها ! ...

* * *

وتخرج « رابعة » ، وتخرج الجارية فى إثرها ، وقد امتلأتْ « رابعة » اطمئنانا ، حين خرجتْ منتصرة ، فبدتْ مزهوةً باشة ، وعدتْ مسرعة إلى غرفتها والجارية تهرول فى إثرها .

وما يئس « الربيع » ولا يئس أصحابه ، ولقد قضوا وقتا يفكرون ، ثم خرجوا وتركوا « الربيع » لينهج نهجه الجديد .

٢٥

لقد كانت « رابعة » تخرجُ مع كلّ فجر خلسة إلى المسجد .
حيث تلقى « رياح بن عمرو » فتسمع منه ، وكانت تجد في القصر من يعينها على ذلك ، فأصبحت قد سُدت عليها المنافذ ، ولم تعد تجد في القصر من تطاوعه نفسه بعونها بعد ما لقى ذلك الخادم عذاباً ونكالاً .

ولقد كانت لها « جارية » تؤنسها وتقومُ عنها ببعض ما تريد فتُركتْ وحيدةً لا تجد من تأنس به ، ونفرتْ منها الجوارى جميعاً : مخافة أن يتعرّضْنَ لأذى الأمير .

ولقد عاشتْ من قبلُ موفورةً لها الأسباب ، لا تُمتهن في شيء ، فعادت تعمل بيديهـــا ، وتتكلّفُ بعضَ ما تقوم به الخوادم .

ولقد كانت تذوقُ شيئاً من إكبار المُحيطات بها ، فإذا هُن جميعا قد أُغرين بالحط من شأنها . ولقد كانت تنفردُ في حجرتها ساعات تخلص فيها لربها ، فأصبحت لا تفرَغُ من سَهرات الأمير المتصلة للغناء والعزف .

ولقد كانت حينَ تُلم بالأمير مغنية عازفةً لا تجدهُ إلا خاليا

لها ، فإذا هى تلمّ به لمثل تلك المجالس ، فلا تجده إلا مع نفر من اللاّهين العابثين يكادون ينالون من كبريائها .

ولقد كانتْ لا تسمع من الأمير إلا كل كلمةٍ طيبة ، فأصبحتْ لا تسمع منه إلا كلّ كلمة نابيَة .

ولقد آذى هذا « رابعة » كلّ الإيذاء ، فكانت تبكى كلما خلَت إلى نفسها ، ولكنها حملتْ كل ذلكَ صابرة ، ولم يَلقها « الربيع » إلا باشة ، وكأنها لم يصبها شىء .

وكان « الربيع » كلما رآها لا تأبهُ بما يَصُبُّ عليها ، زاد فى تنكيله بها ، حتى لقد كادَ يخرج الأمرُ به معهـا إلى ما ينال البـدَن .

ولقد التقتْ « فارعـــةُ » مع الأمير على هذا الطريق دونَ اتفاق . فقرّ قرارُها هى الأُخرى أن تغرى « برابعة » من جواريها من يُدبّرن لها المكايد ، ويحكْنَ لها الدسائس ، ويقلبنَ حياتها عليها بؤساً وجحيماً ، ويُعَيّرنها أباً وأُمًّا .

وما وجدت « رابعة » من بين هذه القلوب جميعاً قلباً واحدا يَحنو عليها ، وكم جَهدت فى أن تلقى جاريتها التى كانت تأنس بها ، فتبثّها شيئًا من آلامها ، فلم توفَّق .

لقد رأى « الربيع » أن يضمن بعُـنفـه ما لم يضمنه برفقه ،

فامعن فى التعذيب . ولقد رأت «رابعة» أن تصبر لهذا العنف كما صبرت لتلك الرقة ، ورأت الصبر على العنف ألذَّ عندها من الصبر على الرقـــة ، فاستطابته ، وأمعنت فى الإباء ليُمعنوا هم فى العذاب، وأقبلت إلى ربها لاتشكو إليه ما ينالها فى حبه ، ولكن لتسأله فكاكا من هذا الأسر فى ذلك القصر ، حتى لا يصرفها عن هواه صارف .

ولقدظن الذين أشاروا على «الربيع» بركوب هذا المركب الخشن شيئين : ظنوا «رابعة» امرأة لن تقوى على كيد الأمير طويلاً ، وظنوا «الربيع» سوف يخشُنُ قلبه عليهـــا ، حين تخشن يده بها .

فإذا هم قد أخطئوا فى شيئين : أخطئوا حين لم يعلموا أن مَرَدَّ العزم فى الإنسان إلى قلب يعمُرُ بما ينتويه ، لا إلى جسم يحمل القوة فيه ، وأخطئوا حين لم يعلموا أن المُدَلَّه ينعم بالعطف يسديه إلى من أحب يجد فيه أُنسَ نفسه ، وسكون قلبه ؛ إذ هو به قريب إلى من أحب وإن تأبَّى عليه ، موصول به وإن تمنع . ثم هو به طامع فيما فاته منه غير يائس فيما استحال عليه ، ولكنه شقى بنفسه حين يعنُفُ بمن أحب ، يقصيه عنه بالذى يفعل ، ويوحشه منه بالذى يأتى ، فيضيق ولا تطيب نفسه بما يضاره به ، فيمتلئ

ندَماً وحسرةً على ما فرط فى حقه .

وهكذا مضت « رابعة » فى تأبّيها قدُماً لاتلين ، ونسيت ماكانت تحمل « للربيع » من استكانةٍ إليه ، حَسبها هو حُباً ، ومن ولاء لا بصنعه الجميل معها خالَهُ هو هــوًى ، وعادت لاتدين له بشىء من هذا وذاك ، ففقد « الربيع » كلَّ أمل فيها .

ومضى « الربيع » فى قسوته يقدّم إليها رِجلا ويؤخرُ أخرى ، يدفعه إليها كبرياؤُه ، ويرده عنها هواه والمشيرون عليه ، وزوجه معهم ، لايألونه إلا إغراء وتحريضاً .

وما هدأت « رابعة » عن العذاب ، وما غمَضتْ عيناها حين تأوى إلى فراشها إلا على دمعات محبوسة ، ولا فتَر لسانها حين تصحو عن دعاء ، تناشد به ربهــا مَخرَجًا مما هى فيـه ...

وما هدأتْ نفسُ « الربيع » ولا استقرّ قلبه فى جنباته ، واضطرب عليه عقله ، وهاج فيه خاطرُه ، فإذا هو يـُصدِرُ عن غير وعى . ويجرى أمره على غير هُدًى .

وتشتد الحرب بين « الربيع » و « رابعة » ؛ يهيىءُ لهاَ « الربيع » كلَّ ما يملك من إرغام ، وتهيىء لها « رابعة » كل ماتملك من قوة .

ومن خلف « الربيع » و « رابعة » قوم هنا وقوم هناك ، يشهدون هذا الصراعَ العنيف . ففيهم من يظاهر « الربيع » يدفعه إلى العنف دفعاً ، وكانت من ورائهم « فارعة » ، ومنهم من يظاهر « رابعةَ » ويحفـزُها إلى الإصرار حفـْزاً ، وكانت من ورائهم « فارعة » .

فلقد كانت « فارعة » من وراء الصفين جميعاً ، يعنيها أن تشهد هذه الحرب القاسية ، لا يرجع عنها « الربيع » ، فهى تؤمنُ أنه إذا قستْ على « رابعة » يده ، فما أو شك أن يقسوَ عليها قلبُـه ، وهى تؤمنُ أن « رابعة » امرأة تؤنسها الكلمة الرقيقة ، وتوحشها الكلمة الغليظة ، وأن تمنـُّعها مع رفق « الربيع » بها لم يكن إلا هذا الدلالَ ، الذى تتمنعُ به المرأة وهى راغبة ، فإذا شبِعت منه نفسها ، وكادت أن تستنفد أسبابه ، عادت صاغرة ، وكانت أخوفَ ما تخافُه أن يعود « الربيعُ » إلى عطفه ، وتعودَ « رابعةُ » إلى دَلهِّا ، فيتوله بها « الربيع » وينصاع لأمرها .

وكانت تؤمن أنها لن تقوى على قلب « الربيع » تصرفه عن حب « رابعة » ، بعد ما استنفدَتْ معه كل حيلة ، فلا هى استطاعت أن ترده بحبه لها ، ولا هى استطاعتْ أن تصرفه بولديه منها ... فعلتْ هذا وغيره فلم تفلح ، ولقد وجدتْ فى هذا السلاح الأخير

خير معين فدستْ على «الربيع» من زينته له ، فاستجاب إليه فى يسر ، ودستْ على «رابعة» من بهيتها لهذا الإباء ، فعلمت أنها أحرصُ عليه ، وأمنع من أن تنزل عنه ؛ فشجعتها عليه .

وكانت «فارعة» يؤرقها أن ترى «الربيع» يفتر فى قسوته ، ويؤذيها أن تحسر أن «رابعة» قد تستكينُ فتسمرت الليلَ والنهار ترقُبُ هذه المعركةَ ، لا تدعها تستقر ، ولا تتركها تهدأ .

٢٦

ويبيتُ « الربيعُ » ، ليلتَهُ يتململ فيها علـى فراشه تململ المريض ، لا يكاد يمس جنبُه الفراش حتى يفزَع ، ولا تكاد تغمض له عين حتى ترتدَّ جاحظة ، ثم يغلبُه النوم فينام ، فإذا هو بين يدى رؤيا مفزعةٍ مثيرة ، وإذا زبانيةٌ شدادٌ غِلاظٌ غضابٌ قد بدرا أبشعَ ما يكونون خَلْقًا ، فى أيديهم حراب محمَاة ، وقد أحاطوا به ينخسُونه بها وهم يصيحون به ، فى صوت أجشّ ينخلعُ له القلب ويطير له اللُّب :

أطلِقْ « رابعة » .

فيهب « الربيعُ » من نومه — الذى ما كاد يأنس به إلا منذ قليـــل — فَزِعًا ، وهو يحسُّ أثرَ الحراب فى جسمه ، وصُراخَ الزبانية فى سمعه ، يخرجُ به الفَزَع إلى الرَّدْهات مشرَّدَ اللُّب ، منزوعَ العقل ، وهو يصيح :

رابعة ! ... « رابعة ! ... »

ويهب مَنْ فى القصر على صُراخ الربيع ، يتلمّسُون الخبر : منهم من تُسعفُه خطاه ، فيقفو فى إثره ، ومنهم من يصمد فى

مكانه — من وراء الحُجُب والأبواب — يرقب ما يجرى .

ويمضى «الربيعُ» يعدوغيرَ متريِّث، لايمسك عليه صوتـه حتى ينتهىَ إلى حجرة « رابعة » ، فيدفع الباب بقوته ، فينفتح له ، فيجد بين يديه راهبتيْن قد اتشحَتَـا بالبياض ، تغطيان به جسميهما من الرأس إلى إخمص القدم ، وإذا هما ساجدتان ، لم يحرِّكْهما هذا الصَّخَب من حولهما ، وقد تركتا إلى جانب من جوانب الحجرة مصباحازيتيا يرسل ضوءاخافتا ضعيفا ، يبعث فى الحجرة الرَّهْبَـة والخُشوع ! ...

وينقلب«الربيعُ»الصائحساكنا و«الربيع»الهائج وادعا، ويعود إلى نفسه مؤنبا لائما ، ثم لايملك نفسه فينفلت من الحجرة خفيفا ، ويرد البابردًّا رفيقا،ويرجع مخفوضَ الرأس ،مهمومالنفس، ثقيل الخطوات ، حتى يدخلَ مخدعه ، فيغلقه عليه ، ويرى الفراش اللين ، يجذبه إليه ، ويحس من ما به تَـعَب يدفعه نحـوه فيسرع إليه . وما يكاد الفراشُ يتَلـقَّـفه حتى يهدَ هوله من وِطَانِـه الوثير ، وغِـطَانِـه الأثير ، ما يغريه بالنوم فينام ! ...

لقد نام « الربيع » ولـكن الذين أيقظَـهم بضجيجه ظَـلُّـوا يقظين يتهامَسُـون، لا يعرفونَ : لمَ صحا « الربيع » مفزعا ؟ و لمَ خرج إلى الرَّدْهَـات هائجا ؟ و لمَ اقتحم على « رابعة » غُـرفـتَـها

متهجما ؟ ولِمَ آب ساكنًا مهموما حزينا ؟

وكان أكثر الجميع همسًا ، فارعة ، فلقد ألقِيَ فى روعها أن « الربيع » تنكرَ من نفسه هذا الأسلوبَ القاسى ، الذى استنَّه ، وأن الحسرةَ على ما فرط منـــه فى جنب « رابعة » استيقظت بين جوانبه فأيقظتْه فزعا ، وأنه ماعاد عن « رابعة » هادئا إلا بعد أن تاب عندها ما كان منه وأناب . فانطوتْ على نفسها مهمومة ، وهى تحاول أن تصلَ نومها ولكنها لم تستطعْ : تهجس بالكثير من الآراء ، وينطلق فكرها يحدثها :

لقد أحبَّنى « الربيعُ » فأخلص وها هو ذا يحب « رابعةَ » فيُخلص ... ألم يُقسم لى « الربيع » — حين حذرت منه تقلّبَه مع الهوى — أنه لنْ يحبَّ سِوَايَ ، وأنه قد باعنى قلبه كله ، فمن أين له هذا القلبُ الثانى الذى أحب به « رابعة » ؟ ...

ثم يحسن ظنها « بالربيع » فيمضى يحدثها :

لم يكن « الربيعُ » كاذبًا حين أحبَّنى فتزوجنى ، ولكنه كان ضعيفًا جاهلاً ، لقد وجد لذع الهوى فى فؤاده ، ووجدنى عندها أطفِئ منه شيئًا ، فسكن إلىّ . وهو يظنُّنى قد أطفأتْ عليه كل شىء ، وعاش إلى جانبى يغلب بجزء قلبه المنطفِئ سائرَ قلبه المتقد ، حتى أيقظت فيه « رابعةُ » هواه المغلوب ، فطغى على هواه الغالب .

ويمضى فكرُها يُملى عليها :

وغير « الربيع » فى الحياة من الرجال الكثير، ومن النساء أقل ، فكم يباح للرجال مالا يباح للنساء ، وكم من هَنَات للرجال تُعَد على النساء كَبَوَات ؟ !... وليست الخطيئةُ خطيئةَ الرجل أو المرأة ، ولكنها خطيئةُ الحياة التى لا تُفسح لكليهما فرصته يفكر ولا تعطيه حقّه يختار .

ثم يسوء ظنُّها « بالربيع » فتمضى تحدث نفسها :

ولكن هذا الحب المجنون يسكن القلوب جميعا ، وإذا كانت الحياة بخيلة بعباقرة العقول ، فما أبخلها بعباقرة القلوب ، لا يجود الزمن بهؤلاء ولا بهؤلاء إلا فى النزر اليسير ، ومع الآماد الطويلة . وأمّا من سواهم من الناس فإنما يغنيهم من هُدى العقل ما تنتظم به أمورهم ليعيشوا ، ومن هوى القلوب ما يأنس به بعضهم إلى بعض ليتحابوا ، والخارجون منهم على هذا أو ذاكَ شُذّاذٌ يغريهم المطْمع ، وتغلبهم الشّهوة الجامحة . وهل « الربيعُ » إلا واحدٌ من هؤلاء الشُذّاذ ، قد خرج عن مألوف العقل وشذّ عن هدى القلب ؟ ... لا يكاد يحب حتى ينكر . ثم لا يكاد ينكر حتى يحب ! ؟ ...

ثم يثور به ظنُّها فيملى عليها :

ما أضعفنى حين يبطش بى « الربيع » ولا أبطش به . وما

أهونَــنى حين يقسو « الربيع » على ولا أقسو عليه! ... إنما تملك المرأة أن تغاضب زوجَها ، وما أضعفَها من وسيلة ! ... وهى إن نفعتنى فى غير تلك الحال ، فلن تنفعَــنى فى موقفى هذا . ولن يكون ذلك إلا اعترافاً منى بالعجز ،وفرارا من الميْدان. وما أحسَبُنى أفعل بهذا شيئا غيرَ أن اخلى له الجوَّ ، هنيئاً ، كما يشاء!...

وما تـكاد « فارعةُ » تنتهى إلى هذا من ظنونها ، حتى تستمع إلى صراخ«الربيع» يردِّد القصرُ صَداه ، وإذا هويخرج من غرفته أشدَّ فزعا من قبلُ مسرعاً ا يصيح :

« رابعة » ! ... « رابعة » ! ...

فتهب « فارعة » من مرقدها ، وتهب بهبَّتها بعضُ الجوارى اللاتىقد أحطْنَ بها،وتهب غيرُهن ممن يضمهن القصريتطلعن!...

* * *

لقد نام « الربيع » يهون على نفسه رؤياه التى رآها لينساها ، ولقدنام « الربيع » يلوم نفسَه على ضعفه ، الذى غلبه فحمله على ركوب هذ المركَب الشائن ، ولقد نام « الربيعُ » يرد إلى نفسه عزمها حتى لا تخور .

ولقد نام«الربيع» يُعجَب كيف خلصت الجارية إلى«رابعة» ، وهو الذى حال بينها وبينها ، ولقد نام « الربيعُ » ينوى بتلك

الجارية سوءا، فقد آمن أنها هي التي تغريها ، ولقد نام « الربيع » على أن يجعلَ الصبح موعدَه ليقضيَ في كل هذا بأمْر .

ولكنه ما يكاد يظلّه النوم بجناحيه حتى عادت إليه الزبانية كثرة وكانوا قلة ، وحتى عادوا إليه بعيون ترسل بالشَّرَر . وعلى أهونَ من ذلك جاءوه أولا ، وحتى عادوا إليه بحراب تفوق الأولى طولاً ، وإن حرابهم لتكاد تنفُذ في جسمه نفوذاً .

وإن هَمْهَمَتَهم لتكاد تخلع قلبه خلعا ، وهي تقول :

أطلق « رابعة » والجارية ! ..

ولم يَقْوَ « الربيع » لتلك الرؤيا ، كما لم يَقْوَ للأولى ، فهب يجري في رَدَهات القصر حتى انتهى إلى غرفة « رابعة » فدفعها دفعته الأولى ، حتى إذا دلَف إليها وجد « رابعة » والجارية ساجدتين كما تركهما . ولكنه في هذه المرة لم يسكن ولم يخشع ، بل قرب منهما وهو يقول :

أنتما حُرَّتان ! ... أنتما حرتان ! ...

ورجع عنهما وهو يردِّد هذه القولة التي ملأت آذان المصيخين، فانطلقت بها الألسنة تردِّدها مع صدى الصوت في غير انقطاع رهة من الزمان ! ...

٣٧

لقد بدا كل شيء هادئا فى قصر « زياد » ، بعد أن خرجت عنه « رابعة » والجارية فى إثْرها . ولقد اطمأن القلقون « لزياد » وسكنت نفوسُهم ، كما اطمأنت القلِقَات « لفارعة » وبين قريرات العيون .

ولم يكن غريباً على هؤلاء وهؤلاء أن يبدو « زياد » حزينا فى بعضِ أحواله . كما لم ينكروا عليه أن يَرَوْه واجماً مفكرا ؛ فلقد قدروا له ذلك حين سرّح « رابعة » ، وأنه لابد لهمن أيام وأيام حتى ينسى ، فلم يزعجهم حزنُه ولا قلقوا لوُجومه ! ...

ولكن الذى بدا غريبا على هؤلاء وهؤلاء ، أن يروا « فارعة » أشدَّ حزنا وأكثر قلقاً ، لقد كانت قبل خروج « رابعة » تُرَى ضاحكةً حينًا ، مَرِحة حينا آخر ، ولم يكن أمر « رابعة » يعنيها إلا لبعض ساعةٍ من نهار ، وبعض ساعة من ليل ، تفكر وتدبر ، حتى إذا ما قضتْ بما تحب عادت « فارعةُ » لحياتها ، ثم لابنيها ، خلية البال مرتاحةَ النفس ، لا يغلبها ما تكتم على هناءتها .

ولا ينغص عليها ما تخفي سرورَها .

ولقد كان هؤلاء وهؤلاء يقدرون لها ، بعـــد أن خرجت «رابعة» ، عنها بشرَ المنتصر وراحة الفائز ، واطمئنان الكاسب ، فإذا هي أوصل ما تكون همًا وأشغلُ ما تكون بالاً ، وأقلق ما تكون نفسا ! ...

ولقد كانوا يجدونها تخلو فى همها الأول إلى من تثقُ به من جواريهـا ، تبادلهن الرأى ، وتلتمس عندهن النصيحة ، فإذا هي مع همها الثانى منطوية على نفسها ، لا تلقى به أحداً ، ولا تحب أن يراها عليه أحد .

ولقد تعودوا عنها — أشد ما تكون المحنة عليها — أن تأوى إلى فراشها تنال حظاً من نوم ، وحظا من راحة ، فإذا هي لا تذوق من ذلك شيئاً ، ولا تستجيب له ! ...

ولقد عرفوها رزينة ، تنهض للأحـــداث بنفس ثابتة ، وتسعى إليها بخطى وئيدة ، فإذا هي عَجِلة فى كل حركة ، فزعة مع كل همس ، تضطرب لوقْع الأقـــدام ، وتوجس شرا لكل حفيف ! ...

ولقد رأوْها لا تُلم بمكان ابنيها من القصر إلا فى أوقات معدودة ، فإذا هي لا تكاد تفارقهما إلا فى أوقات قليلة ! ...

ولقـد خبروها حين ينامان لا تلم بغرفتيهما ، حتى يصبح الصباح ، فإذا هي تختلف إلى حجرتيهما ! ... طول الليل لا تكاد ترجع عنهما حتى تعودَ إليهما ...

* * *

وتمضي الأيام فلا يرد مُضيُّها هؤلاء وهؤلاء إلى ما تعودوا من اطمئنان « للربيع » وإخلاد إلى الراحة والسكون ، ويرونه على لوْن جديد من الهم ، وشكل آخر من التفكير ! ...

لقد شاهدوه متجهما لا تنطلق أسارير وجهه ، عابساً لا يفترّ ثغره عن ابتسامة ، بَرِما بمن حوله لا يجلس إليهم ولا يكلمهم ، وما هكذا شاهدوه من قبل ! ...

ولقد رأوه يعبس لولديه ويتجهم لكبيرهما ، ويكاد ينكره ، وما هكذا رأوه معهما من قبل .

ولقد رأوه يزوَرُّ بجانبه عن زوجه ، لا يلقاها ويأبى عليها هذا اللقاء ، وما هكذا رأوه منها من قبل .

وهكذا اختلط على هؤلاء وهؤلاء الأمر . فلم يعودوا يعرفون ما يفعلون ، وقنعوا بما يرون ، وتركوا الأيام تكشف لهم عما خَفِيَ عليهم ! ...

* * *

ويُطِل على القصر صبحٌ أشبه شيء بليل ، يسوده الصمت الرهيب . والوجوم الحزين . لم يحمل هذا الصبح معه شيئاً رآه هؤلاء وهؤلاء ، فحزنوا له ، ولكنهم سكنوا لهذا الصمت وذلك الوجوم ، فلقد أصبحوا فرأوا الزوجة لا ترقأ لها دمعة ، ورأوا عينيها عيني من باتت على بكاء متصل ، فبكوا لبكائها ودمعت أعينهم ، وما عرفوا سببا لهذا ولا سببا لذاك .

والتفتُوا فوجدوا الأمير كاسفَ البال ، شارد اللب ، مبلبل الخاطر ، فسرى إلى بالهم ولبهم وخاطرهم من ذلك كله شيء كثير ، وما عرفوا لواحد منها سببا .

ثم ينثنُون إلى حيث اعتادوا أن يرَوا ولدَيْ الأمير ، فلا يجدونهما . فيتشوفون إلى أن يروهما حين يضحى النهار ، فلا تقع لهم عين عليهما أول النهار ، فيحدسون ويرجمون بالغيب ، ويسعى ساعيهم إلى هنا وإلى هناك ، فلا يُحس لهما أثرا .

وما هكذا يودِّع الوليدان القصر ، حين يودعانه لحاجة ، وما هكذا يخرجان عنه حين يخرجان لغرض ، فما ودعاه إلا مع علم سابق ، ولا خرجا عنه إلا وقد نذر بهما غير واحد .

ويربط رابطهم بين قلق الزوجة بالأمس وبكائها اليوم ، وبين غضب الأمير مساء ووجومه صباحا ، يربط هذا كله بغيبة

الوليدين، فيجزع جزعاً شديدا، ويهوله ماانتهى إليه الأمر،فيبكى مع الأميرة من يبكى ، ويجّهم مع الأميرة من يجم ، ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا فى هذه المرة يبكون عن سبب ، ويجّمون عن سبب ، فأمعن الباكون فى البكاء ، وأغرق الواجون فى الوجوم ! ...

وانطلقتْ الألسنة تذكر فى همس نكد القصر « برابعة » حين حلّتْ ، وشؤمه بها حين تولّتْ.

٢٨

لقد دخلت « رابعة » هذا القصر أمةً في حسبان ربّها حرة في يقينها ، لقد خال « الربيعُ » أنه ملك رقبتها فهي ملك يمينه ، ورأت هي أن « الربيع » لم يملك منها شيئًا ؛ فقد اختطفت مسلمةً وبيعت مسلمة ، وماكان لمسلم حر أن يُسترقّ ، وماذنبها أن يضل الخاطف فيكذب ، ويبيع غير مباع ، ويخطىء « الربيع » فيشترى غير مشترًى .

ولقد أو شك مولاها الأول أن يهب لهـا حريتها فأبطأ ، ودخل عليه«الربيع» قبل أن يقضى في ذلك بشيء،فانتزعها منه مملوكة فيما قدّر ، فإذا هي تأبى إلا أن تكون حرة . لاسلطان له عليها إلاسلطان الغاصب،تعطيه أجر ما دفع عزفاوغناء،وحسبه منهاذلك .

وغلب حق «رابعة»باطل «الربيع » فارعوى ، وكان متعطشا إن فاته أن يخلص إلى ماأراد بما قدر، فما أفسح سبيل الحب وأجداه !...

فأحب « الربيع » « رابعة » أول الأمر يخدعها، وماظن أنه خدع نفسه ، وأن هذا الحب الكاذب قد استحال إلى حب صادق ، وإذا هذا الحب الصادق قد استحال ولهاً وتدلُّها .

ولقد لانت له ، رابعة ، أول الأمر، فما تملك المرأة أن تدفع عن قلبها حبا يحوطه الجاه والإغراء، ثم صدفت عنه ثانى الأمر حين ذكرت سعيه إليها حين دخل عليها باسم هذا الباطل الذى ظنه حلالا ، واتهمته فى حُبه، وردته عليه .

وكانت فتاة تخالف نزعتها نزعته ، فهى تؤمن بالحب إشباعا للروح ، وهو يؤمن به إشباعا للجسد .

ولقد كان فى قلبها منه شيء ، لأنه ثالث ثلاثة ، مسها الأذى والهوان على أيديهم ، كان أولهم هذا « الخاطف » الذى اختطفها ، وثانيهم هذا الشيخ الذى احتضنها — وإن كادت لينسيها برُّه بها ماشارك فيه — وثالثهم « الربيع » فهو لم يَعْدُ بالذى فعل مافعل خاطفها الأول .

ولقد كان يثنيها عن «الربيع» غير هذا ، إحساسها أنها إن أحبته أحبته مقهورة بلون من ألوان القهر ، فهو سيد وهى مسودة ، وماكان أخوفها من أن تظن أن قلبها سيُملك قسرا كما مُلكت .

كما كان يثنيها عنه اولا أماُلها فى حب رأت عين ابن رب القصر تفيض به فى حنان، وأحست قلبه يشملها بعطف يضطرب به، ولم تكن قد استوت رجلها على الطريق الذى عبده لها هذا الشيخ الزاهد .

ثم ثناها عن هذا وذاك آخر الأمر ما انتهت إليه من حب أسمى ،

لا تعدله الدنيا بما فيها .

ويريدها ، الربيع ، آخر المطاف زوجة ، على أن يمنحها حريتها ، فترضى حريتهـــا وترد عليه ما طلب : إذ لم تعد لها بالدنيا حاجة .

وهكـذا خرجت ، رابعة ، من هذا القصر لم تخسر شيئا دخلته به ، بل لقد كسبت فى خروجها ما لم تكسبه فى دخولها : فلقد كسبت إلى جانب قلبها جسمها لم تعطه لإنسان ، فخرجت حرة طليقة ، تملك قلبا يفيض بحب الله ، طاهرا نقيّا ، وجسما لم تدنسه بإثم طاهرا نقيّا ! ...

٢٩

لقد خرجت « رابعة » من القصر تجر فى يدها « الجاريه » لا يحملان شيئاً إلا قليلاً من متــاع ، حملته الجارية عن « رابعة » ، ولقد خرجتـا مهرولتين مخافة أن يعود « الربيع » فيا قال .

وكانتا بهـــذه الحرية المباغتة جد فرحتين ، وكانتا بسببها جد دهشتين . فما قدّرت « رابعة » ولا قدّرت الجارية أن نفس « الربيع » تسخو بهما هـكذا جملة فى لحظة خاطفة ! . . .

ولقد أوّلت الجارية هذا بما تعرفه عن « الربيع » من تحول ، وبما تعرفه عنه من إباء لا يُسيغ التمتع عليه ، وكبرياء يلفظ به كل من يتأبّى دونه .

وأوّلته « رابعـة » بأن الله قـــد استجاب لدعائها ، فألقى الـكراهية فى نفسه . فاستحال حبه لها بغضا ، وتولهه بها نُفرة ، أحست ذلك منه حين خطا إلى حجرتها فى الأولى واقتحمها عليها ؛ ولقد كان على وشْك أن يرسلها ، ولـكنّ كرهه لم يكن قد قوى على عميق حبه ، فعاد ولم يفعل . وأحسته فى الثانية ، وكان كرهه

قد طغى على هذا الحب . فانمحى حبه بين يدى بغضه ، ففعل ! ...

ولكن « رابعة » لم تكد تودع القصر حتى وقفت إلى ابن الأمير الأكبر تودعه وداعاً حارًّا ، تحس أنت مثله بين عاشق وعاشقة . فلقد وقف لها حين خرجت يشيعها ، ومضت هى تشير إليه بيدها ، ووقف هو يشـــير إليها بيده . حتى إذا ما غابت عن بصره فى غلَس الصبح ، عاد أدراجه كئيبا حزينا .

وما أطلق « الربيع » « رابعة » ومعها الجارية ، حتى أحس أنه فعل غير ما يريد . ولكنه كان ذا كبرياء فلم ينقض ما فعل ، غير أنه ظن أنه كاسب بعنفه هـــذا كسبا جديدا ، فلقد قدر أن « رابعة » لن تقوى لمواجهة الحيـاة . وهو لم يزوّدها بقليل ولا كثير ، ولقد ظن أن « رابعـة » سوف لا تخطو إلى الأمام خطوة إلا ويرجعها عنهـا هـــذا الذى قـدّر ، لذا تشبث « الربيع » بنافذة يرقب ما تجرى به الأمور مطمئنا إلى أنه الغانم ، وأن « رابعة » لن تبعد عن القصر قليلا حتى تعود إليه أدراجها .

وما وقعت عين « الربيع » على « رابعة » والجارية تهرولان حتى مسه شىء من اليأس ، غير أنه صبر للهزيمة الأولى ، ولكنه ما وقعت عينه على موقف « رابعة » من ابنه . وموقف ابنه منها ، حتى أيقن أنه المهزوم أولاً وآخرا . وأن دخول هذا الابن

بينه وبين « رابعة » هـــو الذى صرف قلب « رابعة » عنه ، فانصرف هو عن التفكير فى « رابعة » إلى التفكير فى هـــذا الغريم ، لم يعد يذكر أنه هو ابنه الذى أحبه . ولكنه عاد يذكره الخصم الذى انتزع منه من أحبه . وسرعان ما رجعت به ذاكرته إلى الوراء ، فذكر تلك الأمسيَّة التى جلس فيها إلى « رابعة » عقب أوْبتهما من رحلتهما فى النهر ، يحدثها وتحدثه ، وفجأة طلع عليه هذا الابن يحاور أخاه حوارا ، أنصف فيه « رابعة » فى رأيها ! . . .

لقد كان يظن هذا عَرَضًا وها هو ذا يراه قصدا ، ولقد سمع عندها لفلسفة ابنه فى الحب كما سمع « لرابعة » فوجدهما ينطقان عن وحى واحد ، ظنه قبل أن الصدفة جمعتهما عليه ؛ ولكنه أيقن اليوم أن حبل ابنه بها موصول من قديم ، وأنها عرفت ما عنده ، وعرف ابنه ما عندها ، فصاغا لهما حبًّا كما يحبان .

وما أقحم هذا الوليد نفسه إلا على أمر يعلم سابقة أبيه فيه . ومن نازع أباه على شىء كان جديراً أن ينازعه أبوه عليه ، لا سيما النزاع يثور به قلب ، حين بدأ يعرف « رابعة » ، بدأ ينسى من حوله كل شىء .

وإن الذى دفع « الربيع » ليشهد خروج « رابعة » دفع غيرة « فارعة » ، لتشهده لقد دفعت « الربيعَ » ندامة ودفعت « فارعة »

شماتة ، ودفعت « الربيع » رحمة ، ودفعت « فارعة » نشوة ! ...

وحين وقف « الربيع » يتطلع قلقَ النفس وقفت « فارعة » ساكنتها ، وحين تجهم للفراق وجهُه انطلقت له أساريرها .

وهكذا بدا فى غلس الصبح وجهان مختلفان: أحدهما عابسٌ، وثانيهما ضاحك، حتى إذا ما كان هذا اللقاء بين « رابعة » والابن، جمع العبوس بين الوجهين ، وصبغهما بصبغة واحدة .

وانكفأت الأم لتستقبل الابن بما ترى ؛ فقد كانت تخشى « رابعة » على زوجها ، فأصبحت تخشاها على ابنها ، وتخشى شرا من هذه : فسادا ما بين الابن وأبيه .

وانكفأ الأب ليستقبل مع الابن صفحة جديدة ، يخط القلم أسطرها عجِلا دون ترَيُّث ولا أناةٍ ؛ كأنه يستملى من محفوظ لايخطئ الذاكرة منه حرف.. ولهذا وذاك كان الوجوم الطويل الذى ساد القصر ، وكان هذا الصراعُ الطويل الذى خالج النفوس ، يدبر له الأب وهـــو يعلم أن الزوج لاتعلمه ، وتدبر له الزوجة وهى تعلم أن الأب يعلمه ، ولايدبر له الابن ، لأنه يؤمن أن واحدا فى القصر لايعلمه .

فيفوت على الزوجة تدبيرها. لأنها مغلوبة على أمرها بزلة ابنها ، تلك الزلة التى ملأته عليه غضباً ، وملأتها له شفقة فأخذت تحتاط

له من أبيه ، وتحتاط له مما وقع فيه ، ولقد أعجلها غضب أبيه عن ان تلتفت للثانية ، فجهدت جهد المخذول يتشبث بالنصر ! . . .

ويفوت على الابن أن يحتاط ففوجئ بما يكره . ولم يفطن أن هذا لذاك ، فيعد للأمر عدته .

ولم يقعد الزوج عما أراد ، لأنه أوذى باليد التى كان يدخرها لغير هذا . . . ولقد أحس فعلة الابن تدمى قلبه فثار لها ، وقعد به الحياء عن أن يأخذ فى الإفضاء بها إلى خلصانه ، ولعله إن فعل كان لا يعدم منفسا عنه ، . أو مهونا له ، فتمضى الأمور أمنا وسلاما ، ولكنه لم يفعل فانتهى إلى ما أراد ! . . .



٣٠

وما توشك « رابعة » أن تبعد عن القصر ، ويستوىَ لهـا الطريق ، وتحولَ الأسوار بينها وبين آخر من ودعت . حتى ترسلَها زفرةً طويلةً ، تحسَبُها الجارية زفرة الراحة ، فتتعلق «برابعة» فرحة صائحة تهنئها فى كلمات مكررة ، وإن صوتَها ليكاد يُحبسه نشيج ، تسمعه بكاء وتسمعه ضحكا ، ولقد كان شيئا مختلطا بهذا وذاك .

وتلتفت الجارية إلى « رابعة » ترى أثر البشر فى وجهها فلا تتبينه ، وتقبل عليها تتحسس مبلغ كلماتها من نفسها فلا تجدُها تعى عنها شيئا وتنعم النظر إلى وجهها فتتميزها مقطَّبةَ الجبين ، مغرقة فى التفكير . فتخطو فى إثرها وئيدة ، كما تخطو صامتة ، لا تقول شيئـــا .

لقد خرجتْ « رابعةُ » حين خرجت من القصر عن كل شىء مرّ بها فيه ، ولكنها لم تستطعْ أن تخرجَ عن حديث هذا الابن معها ، ولقد زحم عليها فكرها ، فشغلها عن فرحتها بخروجها ، وشغلها عن الجارية وماتقول ، وإذا هى يمثـلُ لعينيها الشاخصتيْن الماضى

كلمة : تقرؤه كلمة كلمة ، واعية متدبرة .

لقد حملت كما تحمل كلُّ فتاة قلبًا ، ما كاد ينفتح للحب حين أيفعت حتى ملأه عليها هذا الشيخ ، الذى احتضنها ليؤدبها ويخرجها ، حنانا تأنس به الفتاة . ولكنها تتوق إلى غيره . ولقد ذاقت مثله صغيرة فى ظــل أب ، وفى كنف أم ، وتحت جناح أخوات ... ولقد أعطاها هذا الشيخ ما أعطاها هؤلاء جميعا ، ولكنها لم تجد عنده فى ذلك كله ما فيه تطمع ، وما يرد قلبها إلى شبع . فانطوتْ على نفسها تخمد جذوة جامحة بجذوة كابحة . وإذا هى تجمع الحبَّيْن فى حب : لتنسىَ مالم تستطعه بما استطاعته ، وإذا هذا الأبُ الجديد ينال منها عطفا بريئًا مسرفا ، ينسيه أنه اشتراها ويجعله على الرغم منه أباها ! ...

ويختطفها « زياد » فتجد فيه أبًا ، ثالثا وإن انحطت سنه قليلاً ، فهو زوج وأب لفتيين ، أكبرهما فى عمرها ينقص عنه قليلا ! ... ولقد كان « زياد » لا هيا كما بدا لها . ولم يكن الذى تهيأ له قلب « رابعة » . وليقسم « زياد » بين يديها مايقسم . فهى وإن لم تكن قد خبرت الرجل ، فلقد كان فى فطرتها وعىُ النساء .

ولقد نشأها الهوى الخالصُ الذى رضعته طفلة ، وذاقته صبية . وغذيتْهُ فتاة : أن تطلبه هوى خالصًا حين أيفعتْ

وأ كلمات . وحاول « الربيع » أن يردها عنه . فردها إليه هذا المتصوف الذى طلع عليها ! ...

وتحس « رابعة » الراحة فى هذا الهوى الذى أوضح لها هذا المتصوف رسومه . فتمضى فيه ، وتشعر معه بالاطمئنان فتغرق . وبالتخفف من الأعباء المؤذية فتصدير عن حب « الربيع » لتقبل على حب الله .

إلا أنها ما تكاد تمضى حتى يعترض طريقها هـــذا الفتى الأكبر . يلقاها فلا يطيل . ويمر بهـــا فلا يقف . إن نظر إليها مرة أغضى عنها مرات . وإن بسم لها وقتا عبس فى وجهها أوقاتا . لم يصلها ولم يقطعها ، ولقد ذكرته ونسيته ، وانتبهت له وغفلت عنه . لم تعرفه حبيبا ولم تعرفه غير حبيب . حتى كان هذا اللقاء الأخير الذى سعى هو فيه إليها يودعها . فإذا هو حبيب موله معذب ، وإذا هى تجد فيه ضالتها وما كانت تنشد . فتقبل عليه تفرغ محبوس قلبها ، مغلوبة على أمرها . لا تعى ؛ وكأن بينهما هوى قديم ولكنها لا تكاد تذكر شيئا آخر حتى تنفض يدها من يده فى رفق ، وتمضى فى سبيلها ، غير أنها لا تقوى فتتلفت إليه وهى تهرول ، تشير بيديها ، حتى تفصل بينهما الأسوار . فتنطوى على نفسها مهمومة تذكر تلك الجولة الأخيرة التى أبطأ بها الزمن وساقها إليها متأخرا فتنسى الجارية وما تقول ،

وتنسى بهاظفرها بما تمنّته ، وتنسى بها التفكير فيما هى مقبلة عليه .

ولكنها لا تكادُ تبلغ هذا من أمرها . حتى تفيق على صوت يناديها باسمها تظنه أولا وهما فلا تلقي إليه بالا ، ثم تحسه حقيقة ، فترفع إليه رأسا ، فإذا هى وجها لوجه تلقاء « رياح بن عمرو » وإذا هو على قيدِ خطوات منها ، وقد بدأ فى جلبابه الأبيض الفضفاض ، وقد اعتمد على عكازته بيمينه .

وما إنْ تبينته « رابعة » حتى انتفضت انتفاضة قوية . وصرخت ..لء فيها ، وإذا هى على الأرض بين قدميه تبكى ! ...

٣١

لقد حقد « الربيع » على ابنه الأكبر حقدا جعله يكفر بابنيه جميعا. ولقد سوّلت له نفس المحب أشياء، وزينت له نفس الأب أشياء، ولكنه لم يستطع أن يأخذ بكل ما سولت له نفس المحب؛ كما لم يستطع أن يأخـــذ بكل ما زينت له نفس الأب. فانصاع لهذه فى شيء. ولتلك فى شيء، وقنع بأن يخرج عنه ابنيه إلى بيت بعيد، يقع فى طرف بادية البصرة، لا يراهما ولا يريانه.

ولقـد اطمأن هو إلى ما فعل، وجلس يفكر فى « رابعة »، أىّ أرض احتوتها، فأرسل رسله يبحثون عنها، ويتعرفون خبرهـا!...

ولقـــد اطمأنت « فارعة » بعضَ الاطمئنان على ولديها، والاطمئنانَ كله على زوجها، ورجعت فى الأيام القليلة تَمُر عودةً للحياة كما كانت.

ولقد اطمأن الابن الأكبر لحياته الثانية، ورجا فيما ظفر به من حرية أن يسعى سعيه إلى « رابعة »، يلقاها ليتم معها ما بدأ...

ولم يكن هذا اللقاء الأخير بينها وبينه هو كل ماضيه معها، بل

لقد بدأت صلته بها منذ اليوم الذى حلت فيه دار أبيه ، فلقد لقيها صبيحة ذلك اليوم ، مبكرةً إلى حديقة القصر ، وكذلك كانت تفعل . فأنست به هنيهةً تحدثُه ويحدثها ، وكان الفتى ذا نزعة لا تبعد عنها نزعتها ، يؤمن بالحب ، ويكفُر بألوانه بين الناس ! . . .

وكذلك كانت تؤمن « رابعة » وتجلّ الحبَّ عن أن يدنّسه مأرب ، أو أن تشوبه غاية .

ولقد لقى الابن رابعة ، غير ذلك اليوم أياما قليلة متصلة ، سعى فيها كل واحد منهما إلى الآخر عامداً ، وهو يرى أنه غير عامد ، وجلسا طويلا وتحدثا طويلا ، ولكن إرادة فوق إرادتهما حالتْ بين هذا اللقاء وأفسدتْ عليها موضعه ووقته ، فيحس الفتى أن « رابعة » ضاقت به وصدفت عنه وتحس « رابعة » أن الفتى أحسن لقاءها أولاً مضيفا ، وسعى إليها بعد ذلك عابرا ، ولم يكن فى الأولى قد اهتز قلبها لها كما أحسَّتْ فى نظرته ، ولا هو فى غيرها قد خطا إلى حبها ؛ كما قدرت فى بُكوره وحَــدَبه . . .

ولقد شغلت به حينا تفكر فيه ، وكلما همّتْ أن تنساه ، وتنكر على نفسها ما قدّرت من أمره ، حركها إليه بنظرة صامتة

يلقاها بها على البعد ، يَقر فى نفسها معها شيء كثير ، فتعود مشغولة به ، وما تكاد تمضى على ذلك أياماً ، حتى ترى هذا الفتى الذى أقبل عليها منـــذ حين مزْوراً عابساً . يمر بها فلا تصيب منه نظرة ولا لَفْتَة ...

فارتدت إلى نفسها آخر الأمر ، موقنة أنه يعطيها ـ حين يعطى ـ ما يعطيه المتعالى لمن هو دونه ، من لفتات ممنوحة ونظرات موهوبة يُدخل بها على قلوب الناس الأنسَ به ، وأنه يتحرج عن المضى فيها كما يتحرجون ؛ حتى لا يفقد الهيبة له والاحتفاء به . لذلك عمدت « رابعة » إلى أن تنساه وتلقت منه — بعدهذا — ما كانت تتلقى على هذا التقدير الذى اطمأنتْ إليه .

ولكن الفتى لم يكن كما قدرت « رابعة » ، فلقد لقيها — أول ما لقيها — فوقعت فى قلبه . ولقد سعى إليها عندما سعى ليؤكدَ لها هـذا الحب من نفسه . ولم يكن يدرى أولا أن أباه أرادها أ كثر من جارية مغنية ، من أجل ذلك لم ير دخوله بينها وبينه شيئاً ينكره عليه عقله . ولكنه حين أحس هذا الذى شاع عن أبيه كبَتَ فى صدره ما يحس ، يقوى عليه مرة ، فيعبسَ فى وجه « رابعة » ، ويضعف معه مرة فيبسم لها ويهش ، وكانت غلبته لنفسه أكثر من استسلامه لها ، لذلك كان عبوسه فى وجهها أكثر

من ابتسامه لها .

ولم يوجس « الربيع » خيفة حين علم أن فتاه لقى « رابعة » ، ولكنه أوجس خيفة حين علم أن هـذا اللقاء يجرى فى أوقات معلومة ثابتة . تخشى أن يخرج الأمر عما لا يوجس إلى ما يوجس ، فدبّر له ما يفسده ، وما يلقى فى روع كل منهما أن صاحبه لا يريد أن يلقـــاه .

ولقد راقب « الربيع » ابنه ما شاء سرا وجهراً ، فأرضاه منـه ما يفعل ، فاطمأن ولم يعد يذكر هذا الذى كان بينه وبين « رابعة » ، ولا يلقى بالاً إليه .

٣٢

وتصبح «رابعة» فى صومعة من تلك الصوامع التى تناثرت فى بادية البصرة. تقوم منفردة على ربوة لا تعلو عن الأرض كثيرا، تشرف على الطريق، لاتخفى عن العابرين، ولا يخفى عنها العابرون.

وتصبح الجارية مع «رابعة» قد تجردت معها من زينة الحياة الدنيا، تضربان فى الشعاب المحيطة ساعة من نهار، تجمعان شيئا من حطب لوقودهما ودفئهما، وماكانتا تظفران بالقليل منه إلا بعد السعى الطويل، وبعد أن تدمى أرجلهما من وخز الحصى وإبَر الأشواك، حتى إذا ما فرغتا مما تجمعان جلستا تعملان: هذه تعد مغزولاً، وتلك تهيئ مضفورا، فإذا ما استوى لهما منه شىء يصلح للبيع سعت به الجاريةُ غيرَ بعيد، تتقاضى ثمنه خبزاً أو بُقولا، لا يذوقان الإدام، ولا يقدران عليه.

يبقيان فى نور مصباح زيتى ليلةً، وفى الظلام ليالىَ، تهتديان بنور القمر إن فقدتا نور المصباح وتخبطان فى ضوء النجوم إن فقدتا نور القمر، تفترشان حصرا بالية: لم تعرفها جنوبهما إلا حينَ أوَتَا إلى هذه الصَّومعة، وغطاؤُهما لحف من الصوف الخشن

الغليظ ، الذى لا يطيق مسها هذان الجسمان اللينان ، إلا أنها كانت أرحم بهما من مس البرد النافح ، فحمدتاها ! ...

ولقد ضجت « الجارية » بهذه الحياة ، وطالما آذت عليها « رابعة » بعتابها المسىء .

ولقد صبرت « رابعة » لهذه الحياة ، كما صبرت للجارية تهوّنها عليها ، وتحببها فيها

ولقد كان يُلم بهما مع النهار « رياح بن عمرو » ، وغير « رياح بن عمرو » ، من الزاهدين، يجلسون إليهما ، فيقضون معهما أهنأ وقت وأروحه ، فى العبادة ، وحديث العُبَّاد والزاهدين ، تستمع إليه « رابعة » فتطمع « رابعة » فى أن تُكتب معهم ، ثم تتوق نفسها إلى أن تتقدمهم ، فتقسو على نفسها وتزيد على ما كانوا يفعلون .

وتستمع إليه الجارية ، فتقبل ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، ولكنها بعد أيام لم تملك إلا أن تمضى ، ولم تستطع أن تتأخر ، ولم تعد تبرم بحياتها ، بل قبلتها مطمئنة إليها سعيدة بها .

هذا هو الحب الذى نشدته « رابعة » فى دنيا الناس فلم تجده ، حبًا يسمو إلى الروح ولا ينحط إلى الجسد ، حبا لا تحده المآرب فتصرفه عن بلوغه غايته .

من أجل هذا جدت « رابعة » تمعن ، يطمعها كلُّ مزيد فى

مزيد ، حتى أصبحت قدوةً لهؤلاء الذين اتخذتهم لها قدوة : يحدُون فلا يلحقونها ، وكانت تتمنى لو لحقتهم .

ولقد شاع اسمهــــا بين العابدين لحطُّوا بها رحالهم . غادين ورائحين ، وشاع اسمها بين غير العابدين، فقصدها الناس من كل مكان يلتمسون بركـتـَها ! ...

وأصبحت يُرْوَى لها الكثير ، ويؤثـَر عنها الكثير، ويحكى لها الكثير، ولكن واحدا من الناس ـ وكان أعنى الناس بها ـ ظل يجهل خبرها ، ولا يعلم مكانها المبعد من هذه البادية المقفرة ، ذلك هو الأمير « الربيع » .

فلقد طوّفت « رابعة » بعيداً عن « البصرة » عاماً وبعض عام ، حتى نسيتها « البصرة » ، أو كادت أن تنساها ، ثم استقرتْ آخر الأمر فى هذا المكان النائى، لا تريد أن ترى الناس ، ولا أن يراها الناس ، ولكن من عاش فى دنيا الناس ، لم يغبْ عنهم ، ولم يغيبُوا عنه ! ...

٣٣

وتمسى « رابعة » كما تُمسى كلّ ليلة لا تملكُ غير رغيفين ، هما كلُّ ما أعدتْ لها ولجاريتها من طعام مع العشاء ، فما كان شأنها أن تعيش على مُدَّخز .

ويدفع الطريق إليها عابرا قد بداهُزا له ، ماوقعت عينه عليها ، حتى نطق يسألها شيئا من طعام ، وما إن أدركت عنه « رابعة » مايريد ، حتى أسرعت إلى الصومعة تحمل إليه الرغيفين ، فتلقّفهما الرجل فى لهفة ، يُسلم أحدهما إلى فيه بيمينه ، وهو يكاد يبتلعه ابتلاعا ، على حين يطوى الآخر بيساره ليلحقه بأخيه ، ولمّا يفرغ منه ازدرادا .

يفعل هذا وهو ينصبُّ إلى الطريق ليصلَ رحلته ، وليبلغ ما يريد ، قبل أن يزحف إليه الليل فيغطى عليه المعالمَ .

وتراها « الجارية » تحمل الرغيفين إلى هذا العابر ، فتضيق وتغمز « رابعة » بعينها ، فلا تلقن عنها ، أو تغفل أن تلقن عنها ، ويمضى الرجل بالرغيفين ، فتملكُ الجارية أن تَتَفَصح ، فما أحبت أن تؤذيها فى حضرته ، وتقبل على « رابعة » ، تقول :

لقد كان فى رغيف واحد لهذا السائل مقنع يا « رابعة » .

وتجيبها « رابعة » ساخرة :

كأنه آذاكِ أن تبيتى ليلة على الطَّوى ! ...

فتقول لها الجارية وهى تمزح :

فى الماء ما نتبلغ به يا « رابعة » ! ...

وتعرف عنها « رابعة » ما تريد ، فتقول :

إنها حسنة جزاؤها عشرة أمثالها !

وتمضى « الجارية » فى مُزاحها :

ليت لنا نصفَ هذا الجزاء ، أو رُبعَه الآن ! ...

وتغضب لهذا « رابعة » وتقول :

ما أضعفَ ثقتك بوعد ربك ! ...

وتوليها ظهرها لتجلس ناحية ، على حافة تلك الربوة ، تشرف على الطريق ، وترى الجارية أنها أغضبت « رابعة » وإنما أرادت أن تداعبها ، فتسرع فى إثرها ، حتى إذا ما أخذت مكانها إلى جانبها ، نظرت معها إلى قافلة صغيرة ، تنحدر صوب « البصرة » وئيدة ، ولم يكن غريباً على « رابعة » ولا على الجارية أن تقع أعينها على مثل هذا ، ولكن هذه القافلة كانت على غير ما رأتا من قبل ، فلقد رأتا العِير من قبل تمضى تحمل أوساق التجارة والناس ،

لاتحيط بها أبهة ولا تجللها زينة ، فتطلعتا ترمقان صامتتين . فرأتا من بين الجمال جملا يحمل هودجا ، قد استدار كالقبة ، وقد انفرج ركن منها عن سيدة وسيمة ، قد غرقت في حُلاَها ، وهي تعطو بجيدها هنا وهناك ، ثم ترده إليها وكأنها تعجب كيف ضم هذا الفضاء الرهيب . وذلك السكونُ الموحشُ ، في حضنه سيدتين لا حول لهما ولا قوة ! ...

ولقدظنتهما أول ماظنتهما باديتين انحرفتا بعيدا عن مضارب خيامهما تعترضان العابرين ؛ لتُساوما على شيء معهما ، أو لتنالا فَضَالةً من رزق .

ولكنها ماكادت تدانيهما حتى تبيَّنَتْهُما في لباس الراهبات لا البدويات ، فرقّت لهما،فأرسلت حاديها يحمل إليهما سلَّتين .

وتتلق « رابعة » السلة الأولى ، فتجدها قد عُبئت قَديدًا . فتردها على حاملها ، فيأخذها ، وهو يظن أنها قد عافت ما فيها ، فيناولها الأخرى : فلا تدعه يمضي حتى تفتحها ، فتجدها قد ملئت خبزاً ، فترضاها منه ، وتهز رأسها شاكرةً .

وتنفرد « رابعة » بالسلة تعد ما فيها من أرغفة ، فتجدها عشرين ، فترفع رأسها تنظر إلى الجارية ، وقـد وقفتْ إلى جانبها ، وبودها لو سبقت يدُها يدَ « رابعة » فانتزعتْ رغيفا

تسدُّ به جوعَها.

وتنتهي « رابعة » من العد ، وترفع إلى الجارية رأسها باسمة ، وهي تُشير إلى ما بينَ يديها ، وتلقن الجارية عنها ما أرادته ولم تقله ، فتقول :

ما أسرعَ جزاءُ الله إلينا يا « رابعة » .

فتجيبها « رابعة » :

وهل يبطىءُ جزاؤه إلا على من لا يؤمنون بوعده .

* * *

لكنَّ شيئا يقطع عليهما حوارَهما ، ويلفتهما إليه ، هو تلبث سيدة الهوْدَج لا تمضى ، وهي تستمع إلى حاديها ، وقد عاد إليها بعد أن سمع مادار بين « رابعة » والجارية .

لقد عرفت سيدة الهَوْدَجِ أن اسمَ إحدى الراهبتين « رابعة » ، فحركها ذلك للنظر والتلبث لتستوثق ، ولقد كانت نظرة منها قصيرة كفيلة بأن تردها إلى الاستيثاق مما أرادت ، وخافت إن هي أطالت الوقوف أن تثير شيئا لا ترضاه ، فأومأت إلى حادِيها أن يمضى ، ولكنها لم تنحدرْ إلى « البصرة » ، كما كانت منحدرةً ، بل إرتدّت تُصعد إلى حيثُ جاءت .

٣٤

لم يهدأ « الربيع » كما لم يهدأ ابنه فى البحث عن « رابعة » على بُعد ما بينهما ، كان الابن أقرب إلى «رابعة» من أبيه وما يدرى : فلقد كانت الدارُ التى رضيها له أبوه على طرف تلكَ البادية . التى انتهت إليها « رابعة » ، وكانت تتصل بريف مجاور غنى به عن «البصرة» وجعله مدينته يقضى فيه شطرا ، وفى داره مع أخيه شطراً .

وكانت الأم تختلف إليهما فى الحين بعد الحين ، تقصد إليهما عن غير هذا الطريق الذى تشرف عليه صومعة «رابعة» فى ذهابها وإيابها ، ولكنها شاءت هذه المرة فى أوبتها أن تركبَ هذا الطريق تأنس فيه بسكون الصحراء ، وتروّح عن نفسها شيئا من عناء تحس به ، فكان ما كان من لقائها مع «رابعة» ؛ فلقد كانت هى سيدة الهَوْدَج الذى وقف على «رابعة» .

وما إن علمت بمقام « رابعة » القريب من دار ابنها ، حتى أوجست خيفة ، وحتى قدرت أن هـــذا عن سَعى منها إليه ، ولعلها إن لم تلقه اليوم فستلقاهُ غداً ، ولقد أحبت ألا تدع « رابعة » تمضى فيما تريد ، ولعله يكون قريباً ، فآثرت أن ترجع لتلق ابنها ، وهى تعلم أنْ لاخوفَ على زوجها ! . .

ويجد الفتى بين يديه أمه التي ودعته منذُ حين قريب ، فيظن شرا ، ويَجِم لهذا وجوماً يبين في وجهه . ولكنها ما تكاد تحس هذا منه حتى ترده إلى اطمئنانه ، ببشر بالغتْ فيه ، وعذر أخذت تبديه ، عرف الابن منه أنها كادتْ تضلُّ الطريق واستوحشته ، فآثرتْ أن تعود لتركب من الغد طريقها المأمون .

إن «فارعة» كانت تؤمن أن حب زوجها لرابعة، قد يدفعه عنه شيء وشيء ، يدفعه عنه أنه زوج وأنه أب ، ثم يدفعه عنه شيء ثالث له خطره ، هـــو أنه كبير ، وما أجزع الكبارَ مما يتورط فيه الأحداث ، وما أيسر ردّهم عنه وإن طال المدى ! ...

وهي تؤمن أن ابنها يدفعه إلى حب « رابعة » شيء وشيء ، يدفعه إليه أنه خال ، وأنه حدَث ، ثم يدفعه إليه شيء ثالث له خطره أيضاً ، هو أن يظن أن أباه قد انقطع ما بينه وبينها ، فلا يعود يخيفه أنه يؤذيه به ! ...

* * *

ولقد لبثتْ الأم مع ابنها ساعة تحاوره . تدور حول ما تريد ولا تنفذ إليه ، ولكن الابن أوشك أن يدرك عنها ما تقصد إليه ، فجرها إليه جراً ، فإذا هما بعد قليل على حديث مفصح لا تورية فيه ولا إشارة ! ...

لقد استمعت الأمُ إلى ابنها يشكو إليها ما يعاني من حب « رابعة » ، ولقد استمع الابن إلى الأم تحذره من عاقبة هـــذا الهوى الذي

لا تكافؤ فيه .

واستمعت الأم إلى الابن يذكر لها أن الهـوى لا يعرف هذه التفرقة ، وأن أصحاب القلوب لا يساومون . وإنما يساوم الذين يعيشون لأبدانهم .

ويستمع الابن إلى أمه تنسبه إلى الوهم ، وتعيبه بالضعف وتستمع الأم إلى ابنها يخبرها أن الحب لا وهم فيه ولا ضعف . فما هو بالرأي يديره صاحبه ، يخطىء فيه ويصيب فينسب إلى الخطأ أو الصواب ، ولا هو بالشيء يقوى صاحبه على غيره . فينسب إلى الضعف أو القـوة.

ويستمع الابن إلى أمه تثور به ، وهي تقول :

عجباً للقوى يصطنع حجة الضعيف . وما درى أنه غارم بها لا كاسب. لقد أرادت «رابعة» أن تقهرك على نفسك ، فهونت بين يديك ما تعتز به أنت، وصرفتك عما تعلو به عليها، لتكسبك عن رضى واطمئنان، ولو أنك كنت الضعيف وهي القوية ما حاولت أن ترفعك إليها ولا أن تهبط هي إليك ؛ فهي الغارمة في الحالين. وما أبلهها إن فعلت ' . . .

وتستمع الأمُّ إلى الابن وهو يثور ثورته ويقول :

إنك لتأبين إلا أن تفرقي بين الناس فيما قد تساوى فيه الناس: فكما خلق الله قلوب الأغنياء خلق قلوب الفقراء ، وكما يأنس الجاه

إلى الجاه ، كذلك يأنس القلب إلى القلب ، غير أن أصحاب الجاه مجتمعون ومنفضُّون ؛ لأن الجاه متحول ، ولكن أصحاب القلوب مجتمعون غيرَ منفضّين : لأن القلوبَ باقية لا تتحول ! . . .

ويستمع الابن إلى أمه ، وهى تقول ساخرة :

وما يدريك أن ، رابعة ، تقصد إلى قلبك لا إلى جيبك !

فتستمع الأم إلى ابنها وهو يجيب مطمئنا :

لن يملك الحكم على الهوى إلا ذووه .

* * *

وترى الأم أنها مغلوبة إن أرخت لابنها فى حبل الحديث ، تبادله حجة بحجة ، وتذكر أن بين يديها حيلة لم تفطن إليها أولا وأدركتها آخرا ، فتلين لابنها وهى تقول : ولكنك سوف لا تنسى أباك .

عندها ينهزم الابن ، ويحس ما فى كلمتها من وعيد ، ويصمت قليلا فلا يجيب ، وتنصرف عنه لترحل عنه فى الصباح قانعة ؛ لأنها قد اضطرته إلى مقنع ! . . .

٣٥

إن الذى يربط الابن بأبيه غير الذى يربطه «برابعة» : إن الذى يربطه بأبيه ولاء، والذى يربطه «برابعة» حب، وفرق بين الولاء والحب ! . . .

وإن الذى كان يفصله عن «رابعة» أنها كانت فى ملك أبيه، وليس يفصله اليوم عنها شىء. بعد أن خرجت عن ملك أبيه، ولقد خلاّها أبوه فما له لا يضمها هو إليه، ولقد تأبت على أبيه : لأنها لم تستجب لحبه، فلم يتأبى هو عليها، وقد استجابت لحبه ؟ ! . . .

وها هو ذا الزمن قد مر، فجعل ما كان ذكره معيبًا بالأمس، غير معيب اليوم، وإن الزمن الذى أنسى أباه موقفه من «رابعة»، منذ عام وبعض عام، سوف ينسى أباه موقفه الجديد منها بعد عام وبعض عام ! . . .

ثم أليس فى رزق الحياة متسع له عن رزق والده، ثم أليس هو رجلا يقوى على ما يعين به نفسه، شأنه فى ذلك شأن غيره من الرجال ؟ ! . . .

دار هذا كله برأس الابن، لا يدفعه شىء ولا يرده : فلقد آمن

بحب « رابعة » ، وآمن أنه غير مستطيع عنها تحولا ! ...

* * *

ولقد علم الفتى مكان « رابعة » حين حدثته أمه ، وعلم أنها تعيش على الكفاف وتسكن كوخاً ، وأن الحياة تهصرها هصراً . فما ودعته أمه وودعها حتى خف يسعى إلى « رابعة » .

ولكن « رابعة » قد زهدت فى الحياة ، وخرجت عن متاعها ، وكيف السبيل إلى أن تردعنها ! ...

ذكر هذا الفتى وهو فى طريقه فتلبث قليلا يفكر ! ...

ولكن الفتى يريد قلب « رابعة » لا يريد غيره ، يريد أن يعيش إلى جانبها يأنس بها وتأنس به ، ولتكن هى لأخراها وليكن هو لدنياه ، يجمع بينهما أنهما متحابان ، وإن خالف نهجٌ نهجاً .

ثم يهم الفتى ليمضى ، فإذا السماء تتجهم له ، مع رعد قاصف ، وبرق خاطف ، وماء مـــدرار متصل ، فيقف فى مكانه يحمى نفسه بكفيه ، فلا تغنيان . فينشر من فوقه عباءته ، فلا تقى بشىء ، وإذا الماء ينحدر من فوقه ، كما ينحدر من على صفحة الصفاة ، فيعدو متثاقلا ، خطوات هنا وخطوات هناك ، على غير هدى ، وتتراءى له أكمة عالية على كثب ، فيجر رجليه إليها جرا حتى يبلغها بعد لأى . وما يكاد يدرك حافتها حتى يغلبه الإعياء ، فيقع مغشيا عليه ، لا

يدرى من أمره شيئا .

ويعود الفتى إلى وعيه قليلا ، فيجدنفسه فى كهف معتم ، تبين جنباته الملتفة كالسوار الضيق ، ويفتح عينيه على نور ضعيف يشع فى الكهف ينبعث من قنديل زيتى ، فيحسب نفسه حالما ، فيغمض عينيه يدفع عن نفسه ما يهم ، فإذا جنبه يبرم بمضجعه الخشن ، فيتقلب فيه يتحسس بيديه ، فيجد من تحته حصيرا ، قد تعقدت جديلاته وصلبت . فيحدق بعينيه ليرى ، فيميز شيخاً عجوزا قد وقف يحدق فيه . وإن لعينيه بريقا ينفذُ إلى قلبه . وإن لجبينه تألقاً كتألُّق الصفحةِ البيضاء تحت ضوءِ القمر ، فيفزع ، ويكاد ينهض ، فإذا يد هذا الشيخ تمتد إليه فى رفق فتعيده إلى مكانه ، ويسمع هذا الشيخ يقول فى صوت خافت شجى ، له رنين حلو هادىء :

مكانك أيها الفتى فلا تزال مريضا ضعيفا .

ويكاد الفتى ، لا يصدق ماهو فيه ، ويتجمع للنهوض : ولكن الشيخ يقول ، وهو يردُّه بيديه مترفقا :

لقد كنتَ مشرفا على الموت ، ولبثتَ فى مرقدك هذا تهذى هذيان المحمومين، لا تعى من حولكَ شيئا ، فاحمدِ الله أن نجاك ، واسأله العافية فيما بقى ! ...

وما يتم الشيخ كلامه حتى يمدَّ يمينه إلى ركنٍ قريب ، فيتناول

شيئا يشبه الكوب لا يُكمل أن يكونه ، ويصب فيه سائلا لا يبين لونه ، ويناوله الفتى وهو يقول :

على هذا السائل عشت أيامك أيها الفتى ، وما أظنك تقوى لغيره أياما أخرى ، ولقد كنت منذ حين أصبه فى فيك قطرة قطرة ، ولكنك اليوم تستطيع أن تجرعه جرعا ! ...

يقول هذا ، وهو يمدُّ يمينه بالكوب ولكن الفتى لا يحرك للكوب يمينه ليتناوله منه ، وقد بان فى وجهه التأفف والتقزز ! ...

وما إن يحس الشيخ هذا منه حتى يقبل عليه بقوله : لقد نم مظهرك أيها الفتى على أنك ممن نالوا من نعمة الحياة حظا كبيرا ، ويحق لكم أيها المترفون ألا تذوقوا ما يذوق الزاهدون ، وأن تعافوا آنيتهم ، ولكن عذراً يابنى ، فلو ملكتُ أنا غير هذا الإناء ما بخلت به عليك ، ولتطمئن نفسك يابنى إلى الشراب ؛ فقد صح عليه جسمك ، وملكت به عافيتك ! ...

عندها يستخزى الفتى ، ويمـد يديه كلتيهما يتلقف الإناء من الشيخ ، ويجدهما الشيخ ضعيفتين لا تقويان ، فيقترب منه بالإناء فى يد ، ويرفع رأسه بيد أخرى ، وهو يقول له :

لا تستعجل العافية يابنى ، فإن الله يسوقها للمرضى قليلا قليلا ، حتى يطول حمدُهم له جزاء ما أنعم الله عليهم ! ...

ويأنس الفتى بالشيخ فيأخذ معه فى الحديث . ولا يجد الشيخ فى ذلك حرجاً على الفتى فيمضى معه فيه .

الفتى :

ولكنك لم تذكر لى أيها الشيخ أين أنا من دارى ؟ ! ...

الشيخ :

وهل عرفتُ دارك حتى أطمئنك على ما تريد ؟ ! ...

الفتى :

أتعرف ذلك الريف الذى يقع على طرف تلك البادية ؟ ! ...

الشيخ :

وأين دارك من ذلك الريف ؟ ! ...

ويسكت الفتى قليلا : كأنه لا يريد أن يدل على نفسه ، فيمضى الشيخ وهو يقول :

إن صدق ظَنى أيها الفتى ، فأنت أحد سكان هذا القصر الأبيض ذى الحديقة الفسيحة ! ...

الفتى :

ومن أنبأك بها ؟ ! ...

الشيخ :

وهل يضم هذا الريف غير هذا القصر ، وهل حوله

إلا أكواخ لاتنبت مثلك .

ويميل الفتى برأسه جانبا يريد أن يخفى وجهه عن الشيخ ، ليخفى ما قد ارتسم عليه من ضيق ، ويحس الشيخ أنه قد يكون آذاه قليلا ،فيمسح بيمينه على رأسه ، وهو يحوّله إليه ، ويمضى يقول :

ولن تكون أيها الفتى غيرَ الإبن الأكبر « للربيع » أمير « البصرة » ! ...

ويضطرب لها الفتى ويقبض بيديه على يدى الشيخ شيئا ، ويهز الشيخ رأسه وإن لحيته لتكاد تمسُّ وجه الفتى ، فيحس الفتى لشعرها وخزا خفيفا ! ...

الشيخ :

الآن عرفتُ فتاتك « رابعة » التى ما فتئت تهذى باسمها ، حتى أفقت من غيبتك ! ...

الفتى :

وهل كان لى هذيان مسموع ؟ وهل صرخت فى هذا الهذيان باسم فتاة ؟ .

الشيخ :

ليطمئن بالك أيها الفتى ، فلو عرفتَ اسمى عرفت أنى غير

بعيد عن هــذا كله .

الفتى :

وكيف لم أسألك عن اسمك مذ وعيت .

الشيخ :

لا ضير عليك أيها الفتى ، فلقد شغلك عنه ما أخذنا فيه .

ويصمت الشيخ ، ويصمت الفتى قليلا ، ليسمع الشيخَ يعرفه بنفسه ، فلا يجــده يقول شيئاً ، فينظر إليه يستعجله ، فيجده قد أسبل جفنيه . وهو يَتَمتمُ داعيا و مستغفراً ، فيخشع الفتى رهبة ، ولا تقوى عيناه على النظر طويلا إلى الشيخ ، وينطبق جفناه فينام ، وهو لا يعلم من أمر هذا الشيخ شيئا !...

٣٦

وتجلس « رابعة » إلى الجارية ليلة أهدأ ما تكون نفسا ، وأخفّ ما تكون روحا ، عامرة القلب بالبشر ، طلقة اللسان بالحديث ، رقيقة الأداء ، عذبة الإلقاء .

وتحس الجارية منها شيئا لم تعتده ، يجذبها إليها ، فتقبل عليها مرتاحة النفس ، مطمئنة القلب ، تسمع إليها ! ...

رابعة :

لعلك يا صاحبتى لم تعرفى عن « رابعة » شيئا إلا منذ دخلت عليك ذلك القصر ؟

الجارية :

يحلو لى أن أسمعه منك يا « رابعة » ! ...

رابعة :

لن تظفرى منه بطائل ، فلقد بلغك منه الكثير . نعم ، بلغك منه مابلغك على لسان من أرادوا أن يحطوا من شأنى : ومن شأن أبى ؟ ... ومن شأن أمى ؟ ... وكيف نشأت إلى أن ضمنى قصر « الربيع » ؟ ! ...

واقسم ماضرنى فقرى . كما لم يسعدنى غناى . ولقد رأيت كيف أقبلت علىّ الحياة فلفظتها ...

ولكننى سعيدة بشىء واحد ، لم أفقده منذ ملكته ، أتدرين ما هو يا صاحبتى ؟...

الجارية :

أقسم لك ما أعرفه ، وما أشوقنى إليه ! ...

رابعة :

لقد ملكت قلباً جهد الناس أن يشتروه . وأغلين فيه . فلم أبعه إلا للذى خلقه . ولا تحسبى هذا بالشىء الهين على فتاة ، بذل لها على أن تفعل ، زخرف الحياة . وذلت لها . على أن تقبل الجباه . ولقد شقيت للناس ورحمتهم ! ...

شقيت « للربيع » يشتق بين يدى ، ورحمت أهله يشقون بى ، إن أجبته إلى حلال ، فرحمت أهل «الربيع» ، وأشقيت «الربيع» ، وأنا بين هذين معذّبة . لم يرضَ الربيعُ فعلى ، ولم يحمد أهله أمرى ! ...

ولقد شقيتُ لابن « الربيع » ، وأنا أودع ذلك القصر ، ينفطر قلبه وينشق فؤاده ، ولو استجبت له لأثرتها فتنة فى ذلك القصر ، لا يعلم إلا الله مدى ما تبلغه . وإنى عليها لمعذبة .

لقد أحبني حين أقام تلك العوائق بيني وبين النـاس ؛ ليخلص سبيلي إليه ، ولقد أحبني الله حين جعل ما بيني وبين الناس صعباً شائكا ، وما بيني وبينه سهلا ذلولاً .

لقد رأيت دنيا الناس لا يشارك فيها إلا من فقد حسَّه ، وخسِر وجدانه ، واستبدل بالرحمة قسوة ، وبالحنان غلظة ، وبالعَطْف جَفْوة .

ولقـــد ذقت القسوة ، والرحمة ، والحنان ، والغِلظَة ، والعطف ، والجفـــوة ، فعرفت أن الرحمـــة والحنـــان والعطف لا يقوى عليها إلا ذو قلب ، وقد رُزقته ، وأن القسوة والغلظة والجفوة لا يمسك بها إلا من لا قلب له ، وما حُرِمته !...

ثم لقد عرفت طريق الله ، فرأيتهُ أنقى للنفس، وأروح للقلب ، وأخلص من الشائبات ، رحمة كله ، وحنان كله ، وعطف كله . فلم أستبدل به ما عند الناس من قسوة وغلظة وجفوة .

ثم تلتفت إلى الجارية وهي في صمت عميق ، فتحركها إليها وهي تقول :

تراني يا صاحبتي خسرت حين بعت ما عنـــد الناس بما عند الله ؟ ...

وتتطلع إليها الجارية ، وفي عينيهـــا دمعتان ، ولا تقول

شيئا ؟ !... وتتطلع إليها «رابعة» ، فتحس فى دمعتى الجارية الحائرتين تأثرها لها ، فتصل كلامها تقول ، وإن لنبرتها لرنة حزن :

غدا سيأتيك «الربيع» حين يصبح ، فحدثيه أنى رأيت سعادتى به تهدم سعادة غيرى فيه . وما أشقى الإنسان حين يختطف من الناس سعادتهم ليجمعها له ، فيسعد وهم يشقون ، ويهنأ وهم فزعون !...

حدثيه أنى ملكت جهدى لأرده إلى الصواب، وهو حين يحسه ناس ما ألمّ به فى سبيله ، وسوف ينعم به بقــدر ما شقى من أجــله !...

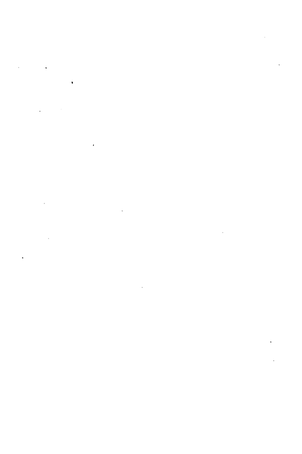
وغدا سيلقاك ابن «الربيع» دنفا مولــّها ، فرُدى عليه عقله ما استطعت، إنى قد خليّته ليحيا ولم أضه إلى ّ ليموت ، وإنى أردت له حياة لا يشوبها نكر ، ولا يسها عيب ، وإن الحب الذى عرفته خالصاً يجب أن يكون الطريق إليه خالصا ، ولو أبحت له ما شاء أن يركب لأبحت لنفسى ما عنّ لى أن أركب . وما أخزى المحبّ وهو يحمل قلبا طاهراً ، ألا يصدر عنه إلا كل طاهر لا يؤذى بهواه ، وإن أوذى فى هواه ، ولا يضار بحبــه ، وإن أصابه الضر فى حبه ... ثم تسكت قليلا وتقول :

ألا ما أولاه أن يكون زاهدا !...

وتضطرب « الجارية » لسماع هذه الكلمات . وتحاول أن تقول ، ولكن « رابعة » تشير إليها بيدها : ألا تتكلم . وتتجه إليها . وهي تقول :

لقد حان أن تذهبي إلى مضجعك يا صاحبتي ! ...

وتقوم عنها الجارية متثاقلة ، وقد استدبرت ليلتهـا بغير ما استقبلتها ؛ فقد استقبلتها بشة ، واستدبرتها عابسة ! ...



٣٧

لقد غاب الفتى عن القصر غيبة طويلة انزعج لها أخوه . ولقد خاله خرج فى بعض شأنه كما يخرج ، ولكن لمّا لم يعد مع المساء، ظنه ذهب فى إثر أمه ، فاطمأن قليلا .

وتعود إليه أمه فى موعدها من كل أسبوع فلا تجده ، وتسأل أخاه عنه ، فيخبرها خبره فتهلع ، ولا تراه إلا قد ذهب فى إثر « رابعة » ! ...

وترسل رسولها يتحسس لها خبره حيث تعيش « رابعة » ، فلا يجد له أثرا ، فيعودُ إليها بما يَحْزُنها ويزعجُها ! ...

وتظن بأبيه الظنون فتركب إليه ، ولم تكن قد قالت له شيئًا عن « رابعة » ، حتى لا تثيره إليها ولا تثيره بابنها . ولكنها لم تجد بدا من أن تقول كل شيء علّها تستشف به بعض ما يغيب عنهـــا .

لقد فرح « الربيعُ » لوجود « رابعة » بعد ما كاد أن ينساها شيئا ما ، ولقد حزن « الربيع » لغيبة ابنه بعد ما كاد أن ينساه شيئا ما ، ولقد أصبح بين أمرين لا يدرى بأيهما يأخذ ؟ ، ورأت

الأمُ الأبَ لا يكاد يقضى فى أمر ابنه بشىء ، على حين قد بدا يقضى فى أمر « رابعة » بكل شىء ، فقدمَ يعد العُدة للقائها ، على حين لم يهم بشىء فى البحث عن ابنه . فتولت هى أمر ابنها . وتركته هو يتولى أمر « رابعة » .

ولقد أحستْ « فارعة » أنها لم تحسن حين كتمت عن « الربيع » هذا كله أولاً ، وكشفت له عنه كله ثانيا . وأنها بالذى فعلت قد أحيت فيه ظنونه بابنه ، وكانت تحب أن تذهب بها ! ...

ولقد حاول هو أن يربط بين هذه الأحداث التى جرت على اتفاق ، فلم يستطع أن يدرك إلا أن ابنه دبّر شيئا ، ودبرت « رابعة » شيئا آخر . فكان ما كان ؛ لهذا سرعان ما نسى حزنَه على ابنه ، وذكر فرحته « برابعة » ، ثم سرعان ما أحيا الظن الجديد ظنا قديما ، وعاد الأب أكثر نقمة على ابنه ، وأشدَّ حقداعليه ! ...

وتحس « فارعة » ما يجول فى نفس « الربيع » يرتسم على محياه ، وما يضطرب به قلبه تنطق به عيناه ، وتعجب للآباء تغلبهم الدنيا على عاطفة الأبوة ، وتقفهم من الأبناء أندادا ، حين يتنافسون على غرض من أغراضها ، وتدهش كيف يعيشون لهم صغارا ، لا يضيرهم أن يخرجوا لهم عن كل شىء ، ثم يتنكرون لهم كبارا

يضيرهم أن ينتزع منهم شئ !...

وتثور « فارعة » لابنها وقد أثارها أبوه عليه حربا . مضى جانب منها أمنا أو شبه أمن، وما أخوفها أن يستحيل جانبها الآخر عنفا وبطشا .

وترى « فارعة » أن الأب فيها مسئول لأنه أساء القدوة ، ولولا نه دان ماهان ابنه، ولو كان على غير هذا النهج لكان ابنه فى إثره !...

ثم ما باله يراه حلالا مايراه على ابنه حراما . ويمنع ابنه ما يبيح لنفسه ثم ما باله إن آمن بالهوى يفتح له قلبه ، يكاد يغلق القلوب جميعا دونه وماذا فعل الابن غير أنه اشتهى ما يشتهي أبوه. لم تدفعه منافسة ، ولم تحفزه مزاحمة . ولكن الذى انغرس فى قلب الأب انغرس مثله فى قلب الابن. فإذا هما تلقاء هدف واحد ، قد يكون عسيراً على كليهما أن يرجعا عنـــــه ، ولكنه أب يجب ألا يضطغن على ابنه، وإن عز على الابن أن يتحول عن شبابه الثائر فما أجدر الأب أن يتناسى لسنه العالية !... ثم أليس هو أبا كان يراح للنعمة على ابنه يراها عليه ؟ !...

وهكذا فاضت نفس « فارعة » عن أن تكتم، ونسيت أنها زوج، وذكرت أنها أم ، فثارت فى وجه « الربيع » تعاتبه على هذه كله ! ..

ولقد صبر لها « الربيع » طويلا، يحس أنه ملوم يفقد حجته .

وترى « فارعة » فى وجه الانكسار فتخفف من حدتها ، حتى لا تخسره مغلوباً . ويرتد عنها غاضبا ، لتطاولها عليه ، فانصرفت عنه تتركه لضميره ، وقد أيقظته .

ولقد انطوت « فارعة » على نفسها ساعة ، وهى أشد ما تكون حقداعلى « رابعة » أكثر ما تكون قلقا على ابنها ، أعظم ما تكون خوفا على زوجها ! .

ورأت ألا تكون بمنأى عن تدبير الأمير ، حتى لا يفوتها منه شيء ، قد تخسر فى فواته ابنا ، وقد تخسر فى فواته زوجاً . لذلك جلست تعد على الأمير حركاته وسكناته ، تعرف هى منها ماتعرف ، وينقل إليها عنها من ينقل !...

ولقد أزعجها ما عرفت ، كما أزعجها ما نقل إليها ، فزاد هذا وذاك فى حقدها ، وجلست تدبر شيئا عليه عليها الحقد ، وتؤكده الغيرة ، فإذا هى على أمر عظيم يهول ، ولكنها لم تجد غيره مخرجاً مما هى فيه ، فارتضته ووكلته إلى ثقة ، فخرج من القصر مع الصباح يقصد قصد « رابعة » وفى عزمه أن يفعل ما أشارت به « فارعة » .

ويصبح الصبح فإذا الأمير على أهبة السير إلى « رابعة » يخرج من القصر مبكراً ، كما خرج منه رسول « فارعة » قد ركب هذا طريقا ، وركب هذا طريقا ، يحمل هذا معنى ويحمل ذاك معنى .

٣٨

ويصبح الابن معافىّ بعض الشيء، ويرى الشيخ يحمل عكازته ليخرج؛ فيتحرك فى مكانه ليلفته إليه، وما إن يراه الشيخ يقظ حتى يحييه! ...

الشيخ:

كيف تجدك يابنى؟ ...

الفتى:

بخير يا أبتاه! ...

الشيخ:

ما بالك كنت تهذى باسم «رابعة» محمومًا، ولم تعد تذكر اسمها صحيحا؟! ...

الفتى:

لقد ذكرتنى حديثنا بدأناه بالأمس، ولم نتمه! ...

الشيخ:

لعلك سائلى عن اسمى؟! ...

الفتى:

هلا ذكرته لى ؟ ! ...

الشيخ :

وهل سألتك عن اسمك ؟ ! ...

الفتى :

لو سألتنى لأجبتك .

الشيخ :

إن كنت تسمع عن مسكين يدعى، رياح بن عمرو ، فادعنى به ! ...

ويمسح الفتى على جبينه ، وكأنه يتذكر شيئا مرّ به ...

الفتى :

نعم ... نعم ... ولكن إلى أين يا أبتاه ! ...

الشيخ :

لقد اشتقت إلى رابعتك يابنى شوقا لم أحسه من قبل ! ...

الفتى :

وهل تلقاها ؟ ! ...

الشيخ :

منذ شُغلت بك لم ألقَها يابنى ، وكان لا يفوتنى يومٌ دون أن أراها ! ..

الفتى :

إنى لأجدنى قويًا على مصاحبتك .

ويحاول الفتى أن ينهض ، ولكن الشيخ يعود إليه ويربت على كتفيه ، وهو يقول له : رفقاً بنفسك يابنى ! ...

الفتى :

لم أرفق بها من قبل ، فكيف أرفق بها اليوم ! ...

الشيخ :

ما أصلحك لأن تكون من الزاهدين ! ...

الفتى :

وهل أقوى لذاك ؟

الشيخ :

إنك لتقول مايقولون ، وإن صدقنى حسى ؛ فلقد فعلت ما يفعلون ...

الفتى :

اصحبنى إلى « رابعة » تحسن إلىّ إحسانا ثانيا ! ...

ويقف الشيخ إلى جانبه هنيهة يفكر ، ثم ينظر إليه ! ...

الشيخ :

انهض يا بنى فما أعجزَنى عن أن أرُدَّ ملهوفا ! ...

وما إن يستجيب الشيخ لرغبة الفتى حتى يستحيل قويا ، يأبى

على الشيخ أن يعينه فى شىء مما يريد ، فما أخوفه إن بدا ضعيفا أن يرده إلى مرقده ! ...

* * *

ويخرج الاثنان من الصومعة، الشيخ معتمدعلى عكازته والفتى معتمد على الشيخ، يأخذان فى الطريق صوب « رابعة » ينقلان الخطو نقلا، يرفق الشيخ بالفتى لا يسرع، فيحمّل الفتى فوق ما يطيق، والفتى يبدو قويا عن غير قوة ، ما يكاد يضع رجله على الأرض حتى يظن أنه لا يقدر أن يرفعها ، وما يكاد يرفعها حتى تقع على الأرض قبل أن يضعها، إلا أنه قد أفاد من إبطاء الشيخ على كل حال ، فاستعان به يستر خلل خطوه واضطراب ساقيه ، وكثيرا ما استوقف الشيخ قليلا ،حين يحس شيئا من تعب وإعياء !...

ولقد قطعا هذا الطريق القصير ، الذى استحال أمامهماطويلا، يتحدثان ، يسأل الفتى ويجيب الشيخ ، ويسأل الشيخ ويجيب الفتى .

ولقد عرف الشيخ قصة الفتى كما عرفها من « رابعة »، ولكنه عرف منه مادق عن « رابعة » من أمره، وما غمض عليها من حاله. عرف منه كيف وَلِه بها وكيف سترَ وَلَهه وعرف منه كيف اختنق ليفسح السبيل لأبيه ، وعرف منه كيف كان يزكى فى نفس « رابعة » ما يؤمن به فى الحب ، ليسمو بها عن أن تنزل إلى حب

أبيه، محتالاً لذلك، وعرف منه كيف قصدلأن يقف منهما موقفه الذى تقدم لك، وهما فى الحديقة، يحـــدث أخاه على مسمع من «رابعة» وأبيه لينصر «رابعة» على أبيه، وعرفَ منْه أنه كان يصطنع هذا أولاً، فانتهت به الحال إلى أن أصبح يعتقده ثانيا. وعرف منه أنه مطمئن للذى صار إليه، سعيدبه، لأنه به أقرب الناس إلى قلب «رابعة» لن يزاحمه فى ذلك مزاحم.

ولقد شكا الفتى للشيخ ما لقى من عسف أبيه به. وشكا الفتى للشيخ أيامه التى قضاها بعد فراق «رابعة» جاداً فى البحث عنها، ولم يعلم أنها على مقربة منه.

وأخبر الفتى الشيخ بلقاء أمه «لرابعة» فى طريقها إلى البصرة وأوبتها عنهـــا مشفقة عليه، تريد أن تنتزعه من مكانه الذى أوجست معه خيفة، لقربه من صومعة، «رابعة».

وأخبر الفتى الشيخ ما كان منه لأمه، وما كان منها له، وكيف دلته على «رابعة»، وهى الحريصة على ألا تدعه يعلم عنها شيئا.

وأخبر الفتى الشيخ بخرجته إلى «رابعة» فى الصباح المبكر يبغى لقاءها. وكيف دهمه المطر، ثم أصابه ما أصابه حتى انتهى إلى قريب من صومعة الشيخ، ثم خر مغشيا عليه!...

وتوقف الفتى عن الحديث ينظر إلى الشيخ، فعنده علم ماكان

بعدها ؛ وتطلع الشيخ للفتى فوجده يُحدق به ، كأنه يسأله القول ! ...

فأخذ الشيخ يخبر الفتى بما كان، وكيف خرج لبعض شأنه بعد أن سكن المطر قليلاً ، فوجد الفتى غير بعيد من صومعته ملقى على الأرض ، فاقد الحس ، فحمله إلى صومعته ، وسهر عليه أياماً سبعة لا يفارقه نهاره ، ولا يغمض عن شأنه ليله ! ...

وأخـذ الشيخ يخبر الفتى كيف قطعته العنـاية به عن الاختـلاف إلى « رابعـة » فى أوقات من نهار كان يذهب إليها فيها ! ...

وأخذ الشيخ يخبر الفتى بجديد « رابعة » فى صومعتها . وكيف خلت إلى ربها خلوا أنساها الدنيا بما تحمل ! ...

وما يـكاد يصل الشيخ إلى هـذه، حتى يتجه الفتى إلى الشيخ مشدوهاً ، وإن يديه لتمسكان بذراعيه فى قوة ، وهو يقول له :

ألم تذكرنى « رابعة » ؟! ...

ويلتفت إليه الشيخ هادئاً كعادته ، رزينا كما هى حاله ، وهو يقول له :

من ذكر الله لم يذكر الناس ، ومن شغل قلبه بهوى ربه هان عنده هوى عبده ...

ويكاد يجن الفتى جنـونا ، ويتشبث بالشيخ يهزه بيديه ويقول :

ولـكنى أحبها .

ولا تزيد ثورة الفتى بالشيخ إلا هـــدوءا ، فيحنو عليه وهو يقـــول :

وما يضيرك يا بنى أن تحب « رابعة » كما تحبها ، وهل يثنيك حبها لله عن أن تمضى أنت فى حبها ؟ ... ألم تخبرنى منذ قليل أنك معها على الطريق ، تؤمن بالحب الذى آمنت به ، وتخلص للحب الذى أخلصت له ؟ ! ...

ويذكر الفتى أنه قال هذا للشيخ فيقول :

نعم ... نعم ! ...

ويمضى الشيخ فى حديثه هادىء الصوت وهو يقول : لن تجد نفسك بعيداً عنها يا بنى ، وسوف تكون قريباً إلى قلبها ، وسوف تحس منها حنانا يرد إليك اطمئنانك ، وعطفا يشيع السكون فى نفسك ، ورقة تعيش عليها روحك ، وهل فى أكثر من هـــذا يطمع المحبـــون ؟ ! ...

ويكاد الفتى يقول ، ولـكن الشيخ يمضى فى الحديث :

سوف تجمع بين قلبك وبين قلب « رابعة » جامعة ، لا تحلها الأيام ولا توهنها التقلبات ، أتدرى ما هى يا بنى ؟ ! ...

ويلتفت الفتى إلى الشيخ مستفسرا بناظريه ، ولا يقـــول

شيئا ، فيمضى الشيخ يجيب :

هو حسبكما لله .

وما يصل الشيخ إلى هذه من حديثه ، حتى يكونا قد انتهى بهما المسير إلى تلك الربوة التى تشرف على صومعة « رابعة » ، وإذا هذه الصومعة منهما بمرأى العين ! ...

فيقف الشيخ بالفتى وهو يشير :

هذا هو يا بنى مقام « رابعة » .

ويفيق الفتى إفاقة وهو ينظر ، ويكاد ينسى أنه متعب ، ويهم أن يترك الشيخ لينحدر هو مسرعا إليها ، ولكن الشيخ يمسك به وهو يقول :

أرانا مقبلين على أمر جلل يا بنى ! ...

ثم يأخذ بيده يعينه ، وهما ينحدران إلى الصومعة ، ويمضى فى حديثه وهو يقول :

إن صدقنى نظرى ، فهذا أبوك يقف غير بعيد من باب الصومعة مطرقا ! ...

وما يكاد الفتى يسمع اسم أبيه حتى يهتزلها ، وترعد فرائصه ، ويحس هذا الشيخ منه ، فيلتفت إليه وهو يقول :

ستلقاه على خير يا بنى ، فلا تجزع ! ...

وما يكادان ينحدران قليلا حتى يتلبث الشيخ قليلا، وهو يصوب النظر نحو الصومعة وهو يقول :

وغير بعيد من أيك رجلان، ترى من هما ؟ !...

وينظر الفتى ويطيل النظر، ثم يقول:

لقد عرفتهما ، أما أحدهما ، فلا أنكر أن يصحبه أبي: لأنه من خلصانه ، وأما ثانيهما فلا أظن إلا أن أمى بعثته لشر ! ...

ولكن الشيخ لا يعير الفتى أذنا صاغية ، فلقد أهمه أن يرى المكان على غير ما عهده ، فلقد رأى الجارية وحدها على باب الصومعة صامتة ، ولقد رأى من حولها ثلاثا غيرها لم يرهن من قبل ، ولم ير «رابعة» بينهن فأسرع بالفتى يمضى مسرعاً ! . . .

لقد وقف « الربيع » بصاحبه على باب « رابعة »، ولقد وقف رسول « فارعة » غير بعيـد منهما ، ولقد وقفت الجارية مع أخوات « رابعة » الثلاث اللاتى سعين للقائها مجتمعات ، وكانت بُكرة هذا اليوم موعدهن بها . لقد جاء « الربيع » ليلقاها على أمر بيّته ، ولقد جاء رسول « الربيع » ليلقاها بأمر دبّره ، ولقد جاءت أخواتها ليلقينها بعد غيبة طالت ، ولقد سعى إليها الفتى مع الشيخ ؛ ليأنس بجوارها ! . . .

وما كاد الشيخ والفتى يلقيان هؤلاء جميعا ، حتى رأيا الوجوه

يعلوها وجوم، وتفيض منها كآبة !...

وما كادا يتقدمان قليلا حتى رأيا الدموع تشرق بها عينا الجارية، وتسيل من عيون الأخوات، ويحبسها « الربيع »، وتبخل بها عينا صاحبه ؛ ولا تقوى عليها عينا رسول « فارعة » !...

فجمد الشيخ فى مكانه، وجمد الفتى بجموده قليلا . لا يعلم شيئا،ثم علم أن « رابعة » ماتت ، فصاح ، وارتفع بالبكاء صوته ، ووقع على الأرض وقعة لم ينهض بعدها إلا محمولا مع « رابعة » إلى حيث ضمهما قبران متجاوران !...